تفسير الفاتحة

لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١١١٥ - ١٢٠٦هـ)

شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

سطور البحث العلمي

دار الإمام مسلم

تفسير الفاتحة

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

سطور البحث العلمي
طباعة ـ نشر ـ توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
00966532627111
Soturcenter@gmail.com
Soturcenter
بحث علميّ - صفّ - تنسيق - تصميم

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع
طباعة ـ نشر ـ توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة
00966590960002
daremslm@gmail.com
daremslm

تفسير الفاتحة

لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١١١٥ - ١٢٠٦هـ)

شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

سطور البحث العلمي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلى وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذه رسالة مباركة، عظيمة النَّفع، غزيرة الفائدة؛ للإمام المُجَدِّد المصلح شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ أفردها في تفسير أعظم سورة في القرآن؛ تلك السُّورة الَّتِي أوجب الله على العباد قراءتها في اليوم واللَّيلة سبع عشرة مرَّة؛ عدد ركعات الصَّلوات المفروضة.

والمسلم له صلة وثيقة بهذه السُّورة مُتكَرِّرة بتكَرُّر اللَّيالي والأيَّام، يقرؤها في حياته مرَّات كثيرة؛ فرضًا ونفلًا، ولا يزال يُكرِّر قراءتها في أيَّامه ولياليه؛ فالحاجة تمسُّ إلى معرفة معانيها، والوقوف على مضامينها، ومعرفة الدُّروس الَّتِي اشتملت عليها، لا أن يكون حظُّ المسلم منها مجرَّد القراءة، أو مجرَّد إقامة الحروف، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النِّساء:٨٢]، فكيف الشَّأن بأمِّ القرآن!

وتسمَّى «أمَّ القرآن»؛ لأنَّها حوت إجمالًا ما حواه القرآن تفصيلًا، فالفاتحة أجملت، والقرآن فصَّل، فهي سورة جليل قدرها، عظيم أثرها، وقد أفردها

جمع من أهل العلم بالتَّصنيف بيانًا لمعانيها ودلالاتها؛ لكنَّ هذه الرِّسالة حوت خيرًا عظيمًا في تجلية وبيان وإيضاح معاني هذه السُّورة، ممَّا لا تكاد تجده في مُؤَلَّف آخر، لا سيَّما وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع في كتاباته بين غزارة العلم، وجمال النُّصح، فيتكلَّم بإشفاق، ونصح، وغَيْرَة، وحرص بالدَّرجة الأولى على بيان أمر المعتقد، وإيضاح مقام التَّوحيد؛ الَّذي هو أساس الدِّين.

وعندما بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرِّسالة المباركة مضامين الفاتحة بيَّنها بربطها بالصَّلاة، إذ «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»[(١)]، بل إنَّه جاء في الحديث تسميتها صلاَةً، وسيذكره المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ...**»[(٢)]، فالمراد بالصَّلاة هنا الفاتحة، وسُمِّيت صلاةً لعظم هذا الرُّكن في الصَّلاة، ولهذا يحتاج المسلم إلى أن يتدبَّر معاني هذه السُّورة ويتأمَّل في دلالاتها، وفي هذه الرِّسالة عون عظيم للمسلم على تدبُّرها، وتنفعه نفعًا عظيمًا في فهم معانيها ومقاصدها ودلالاتها.

رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغفر له ورفع درجته فى المهديين وفسح له فى قبره ونور له فيه وجزاه عنا وعن أمة الإسلام خير الجزاء، ووفقنا أجمعين لكل خير إنه سميع قريب مجيب[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤)، عن عبادة بن الصَّامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) وهذا الشرح أفردته من شرح لي علي تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لآيات من القرآن يسر الله طباعته كاملًا.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أرشدك الله لطاعته، وأحاطك بحياطته، وتولَّاك في الدُّنيا والآخرة، أنَّ مقصود الصَّلاة وروحها ولبَّها؛ هو إقبال القلب على الله -تعالى- فيها، فإذا صُلِّيَت بلا قلب فهي كالجسد الَّذي لا روح فيه.

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥]، ففُسِّر السَّهو: بالسَّهو عن وقتها -أي إضاعته-، والسَّهو عمَّا يجب فيها، والسَّهو عن حضور القلب.

ويدلُّ على ذلك الحديث الَّذي في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»(١)، فوصفه بإضاعة الوقت بقوله: «يَرْقُبُ الشَّمْسَ»، وبإضاعة الأركان بذكره النَّقر، وبإضاعه حضور القلب بقوله: «لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

إذا فهمت ذلك، فافهم نوعًا واحدًا من الصَّلاة، وهو قراءة الفاتحة؛ لعلَّ الله أن يجعل صلاتك في الصَّلوات المقبولة، المضاعفة، المُكفِّرة للذُّنوب».

(١) رواه مسلم: (٦٢٢) عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الشَّرح

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته هذه بطريقة معروفة في مُصَنَّفاته ومُؤَلَّفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألا وهي: الدُّعاء؛ فغالبًا ما يبدأ به، ويأتي أيضًا في أثناء تصانيفه بأدعية عظيمة، صادرة عن نصح، وشفقة، وحرص، فها هو هنا يقول: «**اعلم أرشدك الله لطاعته، وأحاطك بحياطته، وتولَّاك في الدُّنيا والآخرة**».

هذه ثلاث دعوات صدَّر بها هذه الرِّسالة العظيمة المباركة:

✍ **الدَّعوة الأولى: «أرشدك لطاعته»** دعوةٌ بأن يُرشدك الله إلى طاعته؛ أي: أن يهديك، ويجعلك من أهل الرَّشاد، أي: الفهم والدِّراية بالطَّاعة الَّتِي خُلِقَ العبد لأجلها، وأُوجِدَ لتحقيقها علمًا بها وعملًا، إذ لا يكون العبد من أهل الطَّاعة إلَّا بهما.

✍ **الدَّعوة الثَّانية: «أحاطك بحياطته»** هذه دعوة بالحفظ، والكلاءة، والتَّسديد، والعوْن على كُلِّ خير، بأن يكون هذا العبد: مُسَدَّدًا، معانًا، محفوظًا، موفَّقًا.

✍ **الدَّعوة الثَّالثة: «وتولَّاك في الدُّنيا والآخرة»** أي: بما يتولَّى به عباده الصَّالحين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الولِيُّ المَوْلَى، يتوَلَّى عباده فيحفظهم، ويُوَفِّقهم، ويُعينهم، ويُثبِّتهم، ويتولَّاهم في الدَّار الآخرة؛ فيفوزون بعظيم الثَّواب، وجميل المآب.

✍وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صدر هذه الرِّسالة: «**اعلم**» هي كلمة تنبيه يُؤتى بها بين يدي المسائل الجليلة العظيمة الَّتِي يُسْتَدعى لها الانتباه واليقظة والفهم، وفي

القرآن آيات كثيرة بُدِئت بذلك؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمَّد:١٩]، وقوله: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ [الحديد:٢٠].

فقوله: «**اعلم**» أي: تيقَّظ، وانتبه، وكن حاضر الذِّهن، حَسَن الاستماع، حريصًا على الانتفاع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أنَّ مقصود الصَّلاة وروحها ولُبَّها هو إقبال القلب على الله -تعالى- فيها**».

هذا هو مقصود الصَّلاة، ومعنى أنَّ هذا هو مقصود الصَّلاة أي: شُرِعت وطُلِب إقامتها لذلك؛ ليُقبل القلب على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإذا أقبل وُجِدت حقيقة الصَّلاة، وحقيقة الصِّلة بين العبد وبين الله، أمَّا إذا كانت الصَّلاة بلا قلب فشأنها -كما وصف المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كالجسد بلا روح، وجسد بلا روح لا حياة له، فكيف الشَّأن بصلاة بلا إقبال على الله، يكون الجسد حاضرًا، والقلب شاردًا، بعيدًا، غافلًا، لاهِيًا، مُعرضًا، منشغلًا، فما أحوج المسلم إلى أن يستشعر هذا المعنى في صلاته.

وإقبال القلب على الله هو الخشوع في الصَّلاة؛ ومكانه القلب، وأثره يظهر على الجوارح، فليس الخشوع بسكون الجوارح مع انصراف القلب وشروده وذهابه.

أُثِر عن أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّه قال: «تعوَّذوا بالله من خشوع النِّفاق، قيل: يا أبا الدَّرداء وما خشوع النِّفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس

بخاشع»[(١)]. فليس الخشوع سكون الجوارح، وإنَّما الخشوع خشوع القلب المثمر لخشوع الجوارح.

أمَّا مَن يتخشَّع بجوارحه، وقلبه منصرف، وبعيد، ويتصنع ذلك التَّخشُّع للنَّاس لا لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فما أبعده عن لُبِّ الصَّلاة، وروحها، وحقيقتها، وكذلك مَن لا تخشع جوارحه بسبب عدم خشوع قلبه فهذا أيضًا بعيد عن هذا المقام العظيم.

ولهذا يُؤثر عن سعيد بن المسيَّب رَحِمَهُٱللَّهُ -ويُروى مرفوعًا ولا يصحُّ- أنَّه رأى رجلًا يعبث في صلاته، فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه»[(٢)]، فانشغال الإنسان في صلاته بالحركة واللَّهو والعبث هذا سببه عدم خشوع القلب؛ لأنَّ القلب إذا خشع خشعت الجوارح، فهذا الَّذِي يدعو إليه الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله: «**إقبال القلب على الله**»، وهذه الرِّسالة كتبها رَحِمَهُٱللَّهُ لتكون عوْنًا لتحقيق هذا المقام، ولتحصيل هذا المرام، ولا سيَّما من خلال تأمُّل ركن الصَّلاة الأعظم الَّذِي هو قراءة الفاتحة، والوقوف على معانيها ودلالاتها، والتَّدبُّر في ذلك ممَّا يُكسب القلب خشوعًا وإقبالًا على الله تعالى.

✍ **قال** رَحِمَهُٱللَّهُ: **«فإذا صُلِّيت بلا قلب فهي كالجسد الَّذِي لا روح فيه»**.

أي: بلا قلب حاضر، خاشع، مخبت، فهي كالجسد الَّذِي لا روح فيه، ويدُلُّ على هذا قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥]. الويل: هو العذاب الشَّديد؛ لمَن؟ قال: للمُصَلِّين، لكن ما حال

---

(١) مصنَّف ابن أبي شيبة (٣٥٧١١).

(٢) مصنَّف عبد الرَّزَّاق (٣٣٠٨)، ومصنَّف ابن أبي شيبة (٦٧٨٧).

تلك الصَّلاة الَّتِي تُهُدِّد صاحبها بالويل؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾؛ ولهذا حقٌّ على كلِّ مسلم أن يعرف حقيقة السَّهو عن الصَّلاة الذي تُهُدِّد على فعله هذا التَّهديد ليتجنَّبه، لئلَّا يكون من أهل هذا الويل.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فُسِّر السَّهو**» أي: في الصَّلاة الَّذِي لصاحبه هذا الويل «**بالسَّهو عن وقتها**» أي: إضاعة وقتها؛ وإضاعة الوقت، أن يُصلِّي الفجر مثلًا بعد طلوع الشَّمس؛ ولرُبَّما يضبط السَّاعة على وقت الدَّوام بعد طلوع الشَّمس؛ فيقوم ويتوضَّأ ويُصَلِّي ثمَّ يذهب لعمله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النِّساء:١٠٣]. أي: لا بُدَّ أن تؤدَّى في أوقاتها المُحَدَّدة، فمَن أخَّرها عن أوقاتها المُحَدَّدة أصابه هذا الوعيد.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والسَّهو عمَّا يجب فيها**».

هذا معنى آخر للسَّهو في الصَّلاة؛ السَّهو عمَّا يجب فيها؛ بأن لا يهتمَّ بواجبات الصَّلاة، أو لا يهتمُّ بشروط الصَّلاة أو نحو ذلك؛ فيُضَيِّعها، ويُفَرِّط فيها، فيُصَلِّي لكن لا يعتني بالواجبات مثل مَن ينقر الصَّلاة نقر الدِّيك، هذا صلَّى؛ لكنَّه ضيَّع ما يجب في الصَّلاة؛ فيشمله هذا التَّهديد: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والسَّهو عن حضور القلب**».

وهذا المعنى الثَّالث للسَّهو الَّذِي فيه هذا التَّهديد: يُصَلِّي بجسده بلا قلب، القلب مشغول في تجارته الدُّنيويَّة أو في أعماله الخاصَّة أو نحو ذلك، بل أحيانًا بعض النَّاس يُصلِّي وقلبه مشغول بمعصية يُفكِّر فيها، ويُخَطِّط لها، أو نحو ذلك؛ إذًا هذه ثلاثة معان للسَّهو كلُّها حقٌّ، وكلُّها يتناولها هذا الوعيد.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس السَّهو عنها تركها وإلَّا لم يكونوا مُصَلِّين، وإنَّما هو السَّهو عن واجبها، إمَّا عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإمَّا عن الحضور والخشوع، والصَّواب: أنَّه يعمُّ النَّوعين»[(١)]، يشمل هذا ويشمل هذا، يشمل إضاعة الوقت، وإضاعة الواجب، وإضاعة الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها وحضور القلب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ويدلُّ على ذلك**»: الإشارة في قوله: «**ذلك**» راجع إلى المعاني الثَّلاثة كلِّها، «**الحديث الَّذِي في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ»**».

كرَّرها ثلاثًا -صلوات الله وسلامه عليه- تحذيرًا وإنذارًا، من أن يُصَلِّي العبد صلاة المنافق، وكأنَّه يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه صفة صلاة المنافق فاحذرها وإيَّاك وإيَّاها، وعندما تتكرَّر هذه الكلمة ثلاث مرَّات فالمؤمن الصَّادق يتساءل ما هي صلاته؟ حتَّى يتَّقي تلك الحال أو تلك الصِّفة الَّتِي هي صفة صلاة المنافق، قال: «**يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**».

وصف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صلاة المنافق بثلاث صفات:

الصِّفة الأولى: أنَّه يُؤَخِّر الصَّلاة، «**يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ**» أي: عندما تدنو من الغروب، وتوشك أن تغرب صلَّى العصر.

والصِّفة الثَّانية: «**قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا**» أي: صلاة العصر، يُصَلِّيها نقرًا مثل نقر الغراب، مجرَّد ما أن يلمس رأسُه الأرضَ يرفعه مباشرة.

(١) مدارج السَّالكين، لابن القيِّم (١/ ٥٢٤).

والصِّفة الثَّالثة: «لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» أي: قليل الذِّكر لله في صلاته.

وقوله: «حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ» قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلفوا فيه، فقيل: هو على حقيقته، وظاهر لفظه، والمراد: أنَّه يحاذيها بقرنيه عند غروبها، وكذا عند طلوعها؛ لأنَّ الكُفَّار يسجدون لها حينئذ فيقارنها ليكون السَّاجدون لها في صورة السَّاجدين له، ويُخَيِّل لنفسه ولأعوانه أنَّهم إنَّما يسجدون له»[١].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فوصفه بإضاعة الوقت بقوله: يَرْقُبُ الشَّمْسَ، وبإضاعة الأركان بذكر النَّقر، وبإضاعة حضور القلب بقوله: «لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»».**

فجمع هذا الحديث المعاني الثَّلاثة الَّتِي ذُكرت في معنى السَّهو في الصَّلاة الَّذِي تُهُدِّد صاحبه بالويل: إضاعة الوقت، وإضاعة الواجبات والأركان، وإضاعة الخشوع الَّذِي هو لبُّ الصَّلاة وروحها.

ولمَّا نبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مقام الخشوع وحضور القلب ومكانته من الصَّلاة، وحاجة المُصَلِّي إليه حتَّى تكون صلاته مُكَفِّرة، ومضاعفًا أجرها وثوابها، ومثمرة للآثار العظيمة والثِّمار المباركة؛ شرع في ضرب مثال على ذلك من الصَّلاة، وأعمال الصَّلاة مُتَعَدِّدة: فيها تلاوة، وأذكار، ودعاء، وركوع، وسجود، إلى غير ذلك.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فافهم نوعًا واحدًا من الصَّلاة؛ وهو قراءة الفاتحة، لعلَّ الله أن يجعل صلاتك في الصَّلاة المقبولة، المضاعفة، المُكَفِّرة للذُّنوب».**

أي: أنَّ فهم معاني هذه السُّورة الجليلة ودلالاتها ومقاصدها والدُّروس

---

(١) شرح النَّوويِّ على مسلم (٥/ ١٢٤).

المستفادة منها؛ أعظم عوْن للمسلم على أن تكون صلاته صلاة مقبولة، مضاعفة، مُكفِّرة للذُّنوب.

وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»[(١)].

وقال ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلم (٢٣٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أحسن ما يفتح لك الباب في فهم الفاتحة، حديث أبي هريرة الَّذِي في صحيح مسلم[1]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» انتهى الحديث.

فإذا تأمَّل العبد هذا، وعلم أنَّها نصفان: نصف لله، وهو أوَّلها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصف للعبد دعاء يدعو به لنفسه، وتأمَّل: أنَّ الَّذِي علَّمه هذا الدُّعاء هو الله تعالى، وأمره أن يدعو به، ويُكَرِّره في كُلِّ ركعة، وأنَّه سبحانه من فضله وكرمه ضَمِن إجابة هذا الدُّعاء إذا دعا به بإخلاص وحضور القلب فيها، تبيَّن له ما أضاع أكثر النَّاس.

قد هيَّؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل».

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أحسن ما يفتح لك الباب في فهم الفاتحة، حديث أبي هريرة الَّذِي في صحيح مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»».

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٥).

المراد بالصَّلاة: الفاتحة؛ لأنَّها ركن الصَّلاة الأعظم، مثل قول النَّبيِّ ﷺ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[١]، وقوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[٢]، فسمَّى الفاتحة صلاة لِعِظم مكانتها من الصَّلاة، وأنَّه: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»[٣]؛ كما صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

وهذا يُفيد ركنيَّة الفاتحة في الصَّلاة، وأنَّه لا صلاة لمَن لم يقرأ بها، وقَسْمُها نصفان وآياتها سبع آيات، أي: ثلاث آيات ونصف للرَّبِّ ثناء على الله وتمجيد وتفويض، وثلاث آيات ونصف للعبد؛ دعاء والتجاءات وسؤالات يطلبها العبد من ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يمُنَّ عليه بها.

جاء رجل إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال: إنِّي لا أحسن من القرآن شيئًا فعلِّمني شيئًا يجزئني منه، فقال: «**قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، قَالَ: هَذَا لِرَبِّي، فَمَا لِي؟ قَالَ: «**قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي**»[٤]، وهذا نظير ما في سورة الفاتحة، لله النِّصف الأوَّل، وللعبد النِّصف الآخر.

قوله: «**وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» هذا وعد من الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّه قد أجاب عبده، وأعطاه ما سأل، فهي دعوات مستجابات، ومن المؤسف أنَّ كثيرًا من النَّاس يجهل -وهو يقرأ الفاتحة- أنَّها دعاء، ولا يستحضر أنَّه يسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، والتِّرمذيُّ (٨٨٩)، والنَّسائِيُّ (٣٠١٦)، عن عبد الرَّحمن بن يعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في المشكاة (٢٧١٤).

(٢) رواه مسلم (٥٥)، عن تميم الدَّاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤)، عن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه ابن حبَّان (١٨٠٩)، عن ابن أبي أوفى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وإنَّما يقرأ كلامًا -يَرْجُو ثوابه- لكن لا يستحضر أنَّه دعاء.

وينبغي أن يُنبَّه العوامُّ أنَّ هذا دعاء ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، حتَّى يقرأ داعيًا سائلًا طالبًا مستحضرًا أنَّه يدعو الله، يطلب هذا المطلب العظيم؛ فإنَّ كثيرًا منهم يقرؤها ولا يستشعر ذلك.

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للمُعَلِّم: أن يُعَلِّم الإنسان على قَدْر فهمه... ومن أعظم ما تُنبهه عليه التَّضرُّع عند الله، والنَّصيحة، وإحضار القلب في دعاء الفاتحة إذا صلَّى»(١).

قال: «**فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، **قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي**»، وهو الثَّناء عليه بجميل الفعال.

«**وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**» وهو تثنية الحمد وتكريره.

«**وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي**» وهو الثَّناء عليه بأوصاف المجد والعظمة والكبرياء.

«**فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»؛ لأنَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هذا لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هذا للعبد؛ يطلب العوْن من الله؛ فهو يتضمَّن معنى الطَّلب، أي: نطلب منك يا الله أن تعيننا، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هذه الغاية ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الوسيلة لتحقيق تلك الغاية، فلا يمكن أن يُحَقِّق العبد الغاية الَّتِي هي العبوديَّة إلَّا بعون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولهذا قال النَّبِيُّ

(١) الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة (١/ ١٧٠-١٧١).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمعاذ: «لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(١)].

قال: «**فَإِذَا قَالَ**: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»». عندما يقرأ العبد الفاتحة يحظى بهذا الشَّرف؛ قول الله: «**عبدي**» وهذا مقام عظيم؛ سبع مرَّات الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «عبدي»؛ «أثنى عليَّ عبدي، حمدني عبدي، مجَّدني عبدي، هذا لعبدي»، كلَّ مرَّة تقرأ الفاتحة، تَذكُر الله، وتثني على الله، وتمجِّد الله عَزَّوَجَلَّ فتحظى بذلك.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإذا تأمَّل العبد**» أي: هذا الحديث، «**وعلم أنَّها نصفان: نصف لله، وهو أوَّلها إلى قوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، **ونصف للعبد**»، من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى تمامها، «**دعاء يدعو به لنفسه**».

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإذا تأمَّل العبد هذا، وتأمَّل أنَّ الَّذِي علَّمه هذا الدُّعاء هو الله**».

بل وأمرك أن تدعوَ به، وتُكَرِّره في كلِّ ركعة، وأوجب عليك أن تدعو به في اليوم واللَّيلة سبع عشرة مرَّة، وهذا لا يوجد لأيِّ دعاء آخر؛ «ولهذا كان أنفع الدُّعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة»[(٢)].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأنَّه سبحانه من فضله وكرمه ضَمِن إجابة هذا الدعاء إذا دعا به بإخلاص وحضور قلب، تبيَّن له ما أضاع أكثر النَّاس**».

---

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنَّسائِيُّ في الكبرى (٩٨٥٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (٥/ ١٦٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَمِن إجابة هذا الدُّعاء».

أخذه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله: «**وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»، ضمِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الحديث القُدُسيِّ إجابة هذا الدُّعاء، فأنت في كُلِّ مرَّة تدعو الله بهذا الدُّعاء فقد ضمِن الله إجابته؛ فهو دعاء مستجاب، وتبقى العناية بحضور القلب، والصِّدق في السُّؤال والطَّلب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا دعا به بإخلاص وحضور القلب فيها».

أمَّا كون الإنسان يقرأ، ولا يكون قلبه حاضرًا، ولا يستحضر أصلًا أنَّه يدعو الله عندما يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فهذا لا يتناوله هذا الوعد؛ لأنَّه لا بُدَّ من الإخلاص، وحضور القلب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تبيَّن له ما أضاع أكثر النَّاس».

أي: أنَّ كثيرًا من النَّاس غافلون عن هذه المعاني العظيمة، والمقاصد الجليلة، وحضور القلب، والإخلاص في الالتجاء والدُّعاء والطَّلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قد هيَّؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل»[(١)]

فأنت مهيَّأ لمقامات عظيمة، ومنازل رفيعة، ودرجات عالية؛ فلا تحرم نفسك منها، ولا تُفَوِّت عليها هذا الخير العظيم، والفضل العميم، أقبل على الله، واغنم هذا الخير.

(١) البيت من لاميَّة الطُّغرائيِّ المشهورة... الَّتي أوَّلها:

أصالة الرَّأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وهذا بيت عظيم، جدير بأن يكون حاضرًا في الذِّهن؛ لأنَّ المغريات والفتن الَّتِي تجرُّ الإنسان إلى هذا السَّبيل -الَّذِي حَذَّر منه النَّاظم وهو أن يرعى مع الهمل- كثيرة.

وفي بعض النُّسخ أضيف إلى البيت ثلاثة أبيات.

قال:

«قد هيَّؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وأنت في غفلةٍ عمَّا خُلِقتَ له ... وأنتَ في ثقةٍ من وثبةِ الأجلِ

فزكِّ نفسك ممَّا قد يُدنسها ... واختر لها ما ترى من خالص العمل

أأنتَ في سكرةٍ أم أنت منتبهًا ... أم غرَّكَ الأمنُ أم أُلهيتَ بالأمل»

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وها هنا عجيبة من عجائب الأسماء والصِّفات تحصل لمَن تفقَّه قلبه في معاني القرآن وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه؛ بحيث يرى لكُلِّ اسم وصفة موضعًا من صلاته ومحلًّا منها؛ فإنَّه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شاهد بقلبه قيوميَّته، وإذا قال: «الله أكبر» شاهد كبرياءه...

ثمَّ قال: وإذا قال: «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم» فقد آوى إلى ركنه الشَّديد، واعتصم بحوله وقوَّته من عدوِّه الَّذِي يريد أن يقطعه عن ربِّه ويبعده عن قربه ليكون أسوأ حالًا.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربِّه له بقوله: «حَمِدَنِي عَبْدِي». فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ انتظر الجواب بقوله: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «مَجَّدَنِي عَبْدِي» فيا لَذَّة

قلبه، وقُرَّة عينه، وسرور نفسه، بقول ربِّه: «عَبْدِي» ثلاث مرَّات؛ فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشَّهوات، وغيم النُّفوس، لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربِّهَا وفاطرها ومعبودها: «حَمِدَنِي عَبْدِي.. أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.. مَجَّدَنِي عَبْدِي»، ثمَّ يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثَّلاثة الَّتِي هي أصول الأسماء الحسنى وهي: الله، والرَّبُّ، والرَّحمن...

ثمَّ قال: فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فهنا شهد المجد الَّذِي لا يليق بسوى الملك الحقِّ المبين، فيشهد ملكًا قاهرًا قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلَّت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزَّته كُلُّ عزيز؛ فيشهد بقلبه ملكًا على عرش السَّماء مهيمنًا، لعِزَّته تعنو الوجوه وتسجد...

ثمَّ قال: فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ففيها سرُّ الخلق والأمر والدُّنيا والآخرة، وهي متضمِّنة لأجَلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديَّته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحقُّ العبادة إلَّا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل...

ثمَّ قال: وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التَّوحيد: وهما توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، وتضمَّنت التَّعبُّد باسم الرَّبِّ واسم الله، فهو يُعْبَد بألوهيَّته، ويستعان بربوبيَّته، ويهدي إلى الصِّراط المستقيم برحمته؛ فكان أوَّل السُّورة ذكر اسمه: الله والرَّبِّ والرَّحمن مطابقًا لأجل المطالب من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كلِّه، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثمَّ يشهد الدَّاعي بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾شدَّة فاقته، وضرورته إلى

هذه المسألة الَّتِي ليس هو إلى شيء أشدَّ فاقة وحاجة منه إليها البتَّة، فإنَّه محتاج إليه في كلِّ نفس وطرفة عين...

ثمَّ بيَّن أنَّ أهل هذه الهداية هم المُخْتَصُّون بنعمته دون المغضوب عليهم؛ وهم الَّذِين عرفوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، ودون الضَّالين؛ وهم الَّذِين عبدوا الله بغير علم. فالطَّائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم؛ فسبيل المنعم عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلِّها علمًا وعملًا.

فلمَّا فرغ من هذا الثَّناء والدُّعاء والتَّوحيد شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التَّأمين يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السَّماء، وهذا التَّأمين من زينة الصَّلاة، كرفع اليدين الَّذِي هو زينة الصَّلاة، واتِّباع للسُّنَّة، وتعظيم أمر الله، وعبوديَّة اليدين، وشعار الانتقال من ركن إلى ركن»(١).

---

(١) الصَّلاة وأحكام تاركها، لابن القيِّم (ص١٤١-١٤٣) باختصار.

المتن:

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وها أنا أذكر لك بعض معاني هذه السُّورة العظيمة، لعلَّك تصلِّي بحضور قلب، ويعلم قلبك ما نطق به لسانك؛ لأنَّ ما نطق به اللِّسان ولم يعقد عليه القلب ليس بعمل صالح؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

وأبدأ بمعنى الاستعاذة، ثمَّ البسملة، على طريق الاختصار والإيجاز.

فمعنى «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم»: ألوذ بالله، وأعتصم به، وأستجير بجنابه من شرِّ هذا العَدُوِّ، أن يضُرَّني في ديني أو دنياي، أو يصُدَّني عن فعل ما أمرت به، أو يحُثَّني على فعل ما نهيت عنه؛ لأنَّه أحرص ما يكون على العبد إذا أراد عمل الخير، من صلاة، أو قراءة، أو غير ذلك، وذلك أنَّه لا حيلة لك في دفعه إلَّا بالاستعاذة بالله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]؛ فإذا طلبت من الله أن يعيذك منه، واعتصمت به، كان هذا سببًا في حضور القلب.

فاعرف معنى هذه الكلمة، ولا تقلها باللِّسان فقط، كما عليه أكثر النَّاس».

الشَّرح

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وها أنا أذكر لك بعض معاني هذه السُّورة العظيمة؛ لعلَّك تُصَلِّي بحضور قلب».

يُبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ معاني هذه السُّورة من أجل أن يُصَلِّي المُصَلِّي بحضور قلب؛ لأنَّ استحضار معاني الآيات ودلالاتها يُعينك على حضور قلبك وخشوعك بين يدي ربِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في صلاتك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لعلَّك تُصَلِّي بحضور قلب، ويعلم قلبك ما نطق به لسانك»**.

أي: هذه الآيات الَّتِي تتلوها بلسانك يكون قلبك على علم بمعناها وفقه بمدلولها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لأنَّ ما نطق به اللِّسان ولم يعقد عليه القلب ليس بعمل صالح»**.

لأنَّ قلبه لم ينطو على اعتقاد ما دلت عليه، كمن يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو يدعو غير الله مثلًا، فإن هذه القراءة لا تنفعه ولا تدخل في عمله الصالح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١]»** ذكر ذلك ذمًّا للمنافقين، وبيانًا لسوء حالهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأبدأ بمعنى الاستعاذة، ثمَّ البسملة، على طريق الاختصار والإيجاز»**.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوَّلًا ببيان معنى الاستعاذة، والله عَزَّوَجَلَّ أمر عند قراءة القرآن بالاستعاذة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النَّحل:٩٨].

فما معنى قول المُصَلِّي أو التَّالي للقرآن بين يدي التِّلاوة: «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم»؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فمعنى «أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم»: ألوذ بالله، وأعتصم به، وأستجير بجنابه من شرِّ هذا العَدُوِّ، أن يضُرَّني في ديني أو دنياي»**.

إذًا الاستعاذة اعتصام بالله، والتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولوْذ به عَزَّوَجَلَّ وطلب منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يقي عبده من هذا العَدُوِّ، وأن يكفيه شرَّه، وأن يُسلِّمه من كيده ووساوسه.

وقوله: «في ديني أو دنياي»؛ لأنَّ الشَّيطان يريد أن يُفسد على العبد دنياه وأخراه؛ دنياه بأن يوقعه في أعمال يترتَّب عليها ضياع ماله، وصحَّته، وعقله، وفكره، وأخراه ودينه بأن يعمل أعمالًا تُبْعِدُه عن الله، وعن الفوز بثوابه والنَّجاة من عقابه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«أو يصُدَّني عن فعل ما أمرت به، أو يحُثَّني على فعل ما نهيت عنه»**.

فالشَّيطان أيضًا يعمل عمله في هذين الأمرين وهو قاعد -كما جاء في الحديث[(١)]- لابن آدم بأطرقه؛ أي: قاعد له في كلِّ طريق يسلكه، إن كان طريق خير صدَّه عن المُضِيِّ فيه، وإن كان طريق شرٍّ دفعه إليه دفعًا، وأزَّه إليه أزًّا، فهو يصدُّ عن فعل الأوامر، ويحثُّ على فعل النَّواهي.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لأنَّه أحرص ما يكون على العبد إذا أراد عمل الخير من صلاة أو قراءة أو غير ذلك»**.

لهذا شُرِع لنا في الصَّلاة أن نتعوَّذ من هذا العَدُوِّ، وشُرِع لنا أذكار لتسلم لنا صلاتنا؛ **وهي تجتمع في ثلاث كلُّها تتعلَّق بالسَّلامة:**

الموضع الأوَّل: عندما تخرج من بيتك للصَّلاة وغيرها تقول: «**بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: «**هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ**

(١) رواه أحمد (١٥٩٥٨)، والنَّسائِيُّ (٣١٣٤)، عن سبرة بن أبي فاكه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٦٥٣).

وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟»[١].

الموضع الثَّاني: عند دخول المسجد، تتعوَّذ بالتَّعوُّذ المأثور عن نبيِّنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»[٢].

الموضع الثَّالث: بعد أن تُكبِّر تكبيرة الإحرام، وتستفتح، تتعوَّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، هذه الثَّلاث كلُّها التجاءات إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ليقيك من هذا العَدُوِّ، ولتسلم في صلاتك منه، فلا يقربك ولا يكون له عليك طريق؛ لأنَّك في حصن حصين، وحرز متين، بخلاف من غفل عن هذه التَّعوُّذات، وهذه الالتجاءات، ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزُّخرف:٣٦].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لأنَّه أحرص ما يكون على العبد إذا أراد عمل الخير من صلاة أو قراءة أو غير ذلك، وذلك أنَّه لا حيلة لك في دفعه إلَّا بالاستعاذة بالله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف:٢٧]**».

قال بعض السَّلف: عَدُوٌّ يراك ولا تراه شديد المؤنة، ليس هذا العَدُوُّ شخصًا يقابلك وترى شخصه فتدفعه أو تطرده... إلى آخره، بل أنت لا تراه وهو يراك؛ فلا حيلة لك إلَّا أن تستعيذ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ منه، وتلتجأ إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يقيك من هذا العَدُوِّ.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، وابن ماجه (٣٨٨٦)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٤٩٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٦)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٤٧١٥).

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمَّا الشَّيطان الإنسيُّ فالمصانعة تدفع شرَّه، وأمَّا الشَّيطان الجنِّيُّ، فلا يدفعه غير الاستعاذة بالَّذِي خلقه.

وجمع الله بينهما في ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٩٩-٢٠٠]

الثَّانية: في سورة «قد أفلح المؤمنون» في قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

الثَّالثة: في حم السَّجدة، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[فُصِّلت: ٣٤-٣٦] »[(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«كان هذا سببًا في حضور القلب».**

لأنَّ قلبك بهذه الاستعاذة ابتعد عنه الشَّيطان، فكان هذا الابتعاد من الشَّيطان عن قلبك سببًا لحضور قلبك في صلاتك؛ إذًا من أهم المهمَّات في الخشوع في الصَّلاة أن تستعيذ بالله من الشَّيطان؛ لأنَّ الشَّيطان وسواس خنَّاس، إن غفلت عن ذكر الله وسوس، وإن ذكرت الله خنس، أي: ابتعد عنك، وصفا لك قلبك ليقبل على الله.

---

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٥٧-٥٨).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فاعرف معنى هذه الكلمة، ولا تقلها باللِّسان فقط كما عليه أكثر النَّاس**».

فأهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فيما يتعلَّق بالأذكار المأثورة والأدعية المشروعة يقولون: إن صدرت من القائل مع عدم فقه في المعنى، وعدم معرفة للدَّلالة صارت عديمة المنفعة أو قليلة المنفعة؛ لأنَّه لا يفقه ما يقول، يقول شيئًا لا يدري ما هو، فلم يحقَّق تمام العبوديَّة؛ لأنَّه لا يفهم ولا يفقه ما يقول؛ ولهذا يُنبَّه على ذلك بقوله: «**ولا تقلها باللِّسان فقط**» أي: بل قلها بلسانك وقلبك معتصمًا بالله، ملتجئًا إليه -سبحانه-.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا البسملة فمعناها: أَدْخُل في هذا الأمر من قراءة، أو دعاء، أو غير ذلك؛ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لا بحولي ولا بقُوَّتي، بل أفعل هذا الأمر مستعينًا بالله، متبرِّكًا باسمه** تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، متبرئا من الحول والقوة، هذا في كلِّ أمر تُسَمِّي في أوَّله، من أمر الدِّين أو أمر الدُّنيا.**

فإذا أحضرت في نفسك: أن دخولك في القراءة بالله مستعينًا به، مُتَبَرِّئًا من الحول والقُوَّة، كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب، وطردِ الموانع من كلِّ خير».

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا البسملة**» أي: معنى البسملة، والمراد بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمعناها: أَدْخُل في هذا الأمر من قراءة أو دعاء أو غير ذلك**»؛ لأنَّ البسملة تُشْرَع في أمور كثيرة، تُشْرَع -عند قراءة القرآن، وعند دخول المسجد، وعند الخروج من البيت، وعند دخول البيت، وعند ركوب الدَّابَّة، وعند أكل الطَّعام، وعند الصَّيد وفي مقامات كثيرة.

إذًا أنت عندما تُبَسْمِل في كُلِّ مقام فمعنى قولك: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾أي: أدخل في هذا الأمر -قراءةً، كتابةً، صلاةً، دعاءً، خروجًا، دخولًا، إلى غير ذلك- باسم الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لا بحولي ولا بقُوَّتي**».

أي أبرأ من الحوْل والقُوَّة، فلا حول لي ولا قُوَّة في أن أصلي أو أقرأ أو أخرج أو أدخل أو آكل أو أشرب أو أركب إلى غير ذلك إلَّا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«بل أفعل هذا الأمر مستعينًا بالله»**.

الباء في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ باء الاستعانة، أصلِّي باسم الله، أقرأ باسم الله، أكتب باسم الله، آكل باسم الله؛ كلُّ أمورك لا تفعلها بحول منك ولا بقُوَّة، ولكن باستعانتك بالله، والتجائك إليه، ومده وعونه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«مُتبَرِّكًا باسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متبرئًا من الحول والقوة»**.

ففي ذكر البسملة بين يدي الأمور من قراءة أو غير ذلك حلول البركة، يبارك الله لك في هذا الَّذِي ذكرت اسمه عَزَّوَجَلَّ عليه، وبدأته بذكر اسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه؛ فهذا من أسباب حلول البركة.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«هذا في كلِّ أمر تُسَمِّي في أوَّله من أمر الدِّين أو أمر الدُّنيا»**.

البسملة تشرع في أمور الدِّين وأمور الدُّنيا، تُبَسْمِل عندما تأكل، أو تشرب، أو تصيد؛ وغير ذلك من الأمور الدُّنيويَّة، وأيضًا تُبَسْمِل عندما تقرأ القرآن، أو تتوضَّأ، وغير ذلك من الأمور الدِّينيَّة.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فإذا أحضرت في نفسك: أنَّ دخولك في القراءة بالله مستعينًا به، مُتبَرِّئًا من الحول والقُوَّة، كان هذا أكبرَ الأسباب في حضور القلب»**.

هذا السَّبب الثَّاني لحضور القلب؛ الأوَّل: التَّعوُّذ فينطرد عنك الشَّيطان؛ ويحضر القلب، الثَّاني: البسملة؛ وفيها اللُّجوء إلى الله، والاستعانة به، فهذا أكبر عوْن أيضًا على حضور القلب.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وطردِ الموانع من كُلِّ خير»** أي: الموانع الَّتِي تحول بين المرء وبين الخيرات.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **اسمان مشتقَّان من الرَّحمة، أحدهما أبلغ من الآخر، مثل: العلَّام والعليم، قال ابن عبَّاس: «هما اسمان رقيقان، أحدهما أرقُّ من الآخر»[(١)] أي: أكثر من الآخر رحمة».**

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **اسمان مشتقَّان من الرَّحمة».**

لأنَّ أسماء الله كلَّها ليس فيها اسم جامد، كلُّها مشتقَّة، ومعنى مشتقَّة: أي: كُلُّ اسم منها دالٌّ على صفة؛ مثل: الرَّحمن الرَّحمة، السَّميع السَّمع، العليم العلم، العزيز العِزَّة، وهكذا.

وكُلٌّ من هذين الاسمين دالٌّ على ثبوت الرَّحمة صفة لله؛ لكن ما يدلُّ عليه الاسمان من ثبوت الرَّحمة صفة لله ليس معنًى مُتكرِّرًا، بل كُلٌّ من الاسمين له دلالة تتعلَّق بالرَّحمة لكن الدَّلالة ليست هي من قبيل التَّكرار، وأحسن ما قيل في ذلك:

الرَّحمن: على وزن فعلان -وهو يدلُّ على السَّعة- يدلُّ على الرَّحمة الواسعة، الَّتِي هي صفة قائمة بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وأمَّا الرَّحيم: فهو الَّذِي يدلُّ على تعلُّقها بالمرحوم، مثل ما جاء في قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ولم يأتِ رحمانًا؛ فإذًا الرَّحمن يدلُّ على ما قام بالله من صفة الرَّحمة، والرَّحيم يدلُّ على تعلُّق هذا الوصف بالمخلوق، فالأوَّل دالٌّ على أنَّ الرَّحمة صفته، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يرحم خلقه برحمته.

---

(١) رواه البيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٨٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«أحدهما أبلغ من الآخر، مثل: العلَّام والعليم، قال ابن عبَّاس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر، أي: أكثر من الآخر رحمة».**

هذا الأثر يُروى عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رواه البيهقيُّ في الأسماء والصِّفات[(١)]، وسنده ضعيف، قال الحافظ ابن حجر: «لا يثبت لأنَّه من رواية الكلبيِّ عن أبي صالح عنه، والكلبيُّ متروك الحديث»[(٢)].

وأيضًا من جهة ذكر الرِّقَّة «**رقيقان**» استشكله بعض أهل العلم، كما أشار إلى ذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[(٣)] عندما أورد هذا الأثر.

ومن جهة أخرى ما قد يُشعره هذا المعنى من التَّكرار في مدلول الاسمين، حيث جُعِل لكُلٍّ منهما معنى الآخر.

والأمر كما قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقَّان من الرَّحمة»**، فكُلٌّ منهما دالٌّ على ثبوت الرَّحمة صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمَّا الرَّحمن فيدلُّ على ما قام بالله من ذلك، والرَّحيم يدلُّ على تعلُّق ذلك بالمرحوم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]

---

(١) رواه البيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٨٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩).

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته»[(١)].

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٨).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الفاتحة فهي سبع آيات: ثلاث ونصف لله، وثلاث ونصف للعبد، فأوَّلها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، فاعلم أنَّ الحمد هو: الثَّناء باللِّسان على الجميل الاختياريِّ، فأخرج بقوله: الثَّناء باللِّسان، الثَّناء بالفعل؛ الَّذِي يُسَمَّى لسان الحال، فذلك من نوع الشُّكر.

وقوله: على الجميل الاختياريِّ، أي: الَّذِي يفعله الإنسان بإرادته، وأمَّا الجميل الَّذِي لا صنع له فيه، مثل: الجمال ونحوه، فالثَّناء به يُسَمَّى مدحًا لا حمدًا.

والفرق بين الحمد والشُّكر: أنَّ الحمد يتضمَّن المدح والثَّناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء أكان أحسن إلى الحامد أو لم يكن، والشُّكر لا يكون إلَّا على إحسان المشكور؛ فمن هذا الوجه الحمد أعمُّ من الشُّكر، لأنَّه يكون على المحاسن والإحسان، فإنَّ الله يُحمَد على ما له من الأسماء الحسنى، وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية [الإسراء:١١١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأمَّا الشُّكر: فإنَّه لا يكون إلَّا على الإنعام؛ فهو أخصُّ من الحمد من هذا الوجه، لكنَّه يكون بالقلب واليد واللِّسان، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ:١٣].

والحمد إنَّما يكون بالقلب واللِّسان، فمن هذا الوجه الشُّكر أعمُّ من جهة أنواعه، والحمد أعمُّ من جهة أسبابه.

والألف واللَّام في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للاستغراق، أي: جميع أنواع الحمد لله لا لغيره؛ فأمَّا الَّذِي لا صنع للخلق فيه، مثل: خلق الإنسان، وخلق السَّمع والبصر، وخلق السَّماء والأرض، والأرزاق، وغير ذلك، فواضح.

وأمَّا ما يحمد عليه المخلوق، مثل: ما يثنى به على الصَّالحين والأنبياء والمرسلين، وعلى مَن فعل معروفًا -خصوصًا إن أسداه إليك- فهذا كلُّه لله أيضًا؛ بمعنى: أنَّه خلق ذلك الفاعل، وأعطاه ما فعل به ذلك، وحبَّبه إليه، وقوَّاه عليه، وغير ذلك من أفضال الله الَّذِي لو يختلُّ بعضها، لم يحمد ذلك المحمود، فصار الحمد كلُّه لله بهذا الاعتبار».

الشَّرح

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الفاتحة فهي سبع آيات: ثلاث ونصف لله، وثلاث ونصف للعبد».

وقد مرَّ حديث: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**» أي: أنَّ سورة الفاتحة مقسومة بالنِّصف بين العبد وبين الرَّبِّ؛ الثَّلاث الآيات الأوَل ونصف الآية الرَّابعة لله، ثمَّ نصف الآية الرَّابعة والثَّلاث الآيات الأخيرة للعبد.

وثَمَّة خلاف بين أهل العلم؛ هل «**البسملة**» آية من سورة الفاتحة أم لا؟ واختيار الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ «**البسملة**» ليست آية من سورة الفاتحة، ومن الأدلَّة الَّتِي استدلَّ بها؛ الحديث: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي..**»؛ لأنَّ الفاتحة آياتها سبع باتِّفاق أهل العلم، وهي تبدأ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإذا كان كذلك فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ

﴿نَعْبُدُ﴾، هذه ثلاث آيات ونصف لله، ثمَّ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذه ثلاث آيات ونصف للعبد؛ ولهذا يقول: «**فأوَّلها**» أي: أوَّل الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيهًا منه إلى أنَّ أوَّل الفاتحة هو ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

ولقد جاء حديث في تقرير هذا الأمر نصًّا -لكن في سنده مقال- عند الطَّبرانيِّ في الأوسط، عن أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، ثمَّ قال: «قَالَ رَبُّكُمْ: ابْنَ آدَمَ، أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ سَبْعَ آيَاتٍ، ثَلَاثٌ لِي، وَثَلَاثٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَمَّا الَّتِي لِي: فَـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، وَالَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، مِنْكَ الْعِبَادَةُ وَعَلَيَّ الْعَوْنُ لَكَ، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ: فَـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]»[1]، ولكن في سنده سليمان بن أرقم متروك، وبه أعلَّه الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فاعلم أنَّ الحمد هو: الثَّناء باللِّسان على الجميل الاختياريِّ**».

هذا تعريف للحمد بأنَّه ثناء باللِّسان على الجميل الاختياريِّ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأخرج بقوله: «الثَّناء باللِّسان» الثَّناء بالفعل؛ الَّذِي يُسَمَّى لسان الحال، فذلك من نوع الشُّكر**».

أي: لا يدخل في الحمد، فالحمد لا بُدَّ فيه من حركة اللِّسان، الحمد باللِّسان

(١) رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط (٦٤١١)، وضعَّفه الألبانيُّ في سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة (٥٤٤٢).

ومعه القلب؛ ولهذا -سيأتي- أنَّ الشُّكر أعمُّ؛ لأنَّ الشُّكر يكون أيضًا بالعمل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، وأمَّا الحمد فلا يكون إلَّا باللِّسان.

✍ **وقوله: «على الجميل الاختياريِّ»** أي: الثَّناء على الإنسان يكون على الجميل الاختياريِّ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«أي: الَّذِي يفعله الإنسان بإرادته»** نعمة كانت أو غيرها، يقال: حمدته على إحسانه وإنعامه، وحمدته على شجاعته وإقدامه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأمَّا الجميل الَّذِي لا صنع له فيه، مثل: الجمال ونحوه، فالثَّناء به يُسَمَّى مدحًا لا حمدًا».**

عندما يثنى على إنسان لجمال أو لحسن صورته أو طوله أو شيء من هذا القبيل هذا يُسَمَّى مدحًا لا حمدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهل الحمد على كلِّ ما يحمد به الممدوح؛ وإن لم يكن باختياره أو لا يكون الحمد إلَّا على الأمور الاختياريَّة. كما قيل في الذَّمِّ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه»(١).

لإنَّ الإنسان يُذَمُّ على الفعل الَّذِي فعله باختياره؛ لكنَّ الأمر الَّذِي ليس له اختيار فيه لا يُذَمُّ عليه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«والفرق بين الحمد والشُّكر: أنَّ الحمد يتضمَّن المدح والثَّناء على المحمود بذكر محاسنه سواء أكان أحسن إلى الحامد أو لم يكن».**

وهذا تنبيه مهمٌّ فيما يتعلَّق بحمد الله، وأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُحمد على الإحسان، ويُحمد على المحاسن، يُحمد على إنعامه، وإكرامه، وتفضله،

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٤/ ٣١٣).

وجوده، وعطائه، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، ويُحمد كذلك على أسمائه وصفاته، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ:١-٢] ويُحمد على تنزُّهه عن صفات النَّقص، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١].

فالحمد -فيما يتعلَّق بالله- حمد على الإحسان، وحمد على المحاسن، الإحسان الَّذِي هو الإنعام والتَّفضُّل، والمحاسن الَّتِي هي صفات الكمال ونعوت الجلال الَّتِي اتَّصف بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الحمد يتضمَّن المدح والثَّناء على المحمود بذكر محاسنه؛ سواء كان إحسانًا إلى الحامد أو لم يكن، والشُّكر لا يكون إلَّا على إحسان المشكور**».

هذا هو الفرق بين الشُّكر والحمد: الحمد على الإحسان والمحاسن، والشُّكر: على الإحسان دون المحاسن، يُشكر على إنعامه وفضله وجوده وعطائه، فمن هذا الوجه الحمد أعمُّ من الشُّكر.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإنَّ الله يحمد على ما له من الأسماء الحسنى وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا قال:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١] **الآية، وقال:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، **إلى غير ذلك من الآيات**».

وهذا تنبيه من الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الحمد نوعان: حمد على الأسماء والصِّفات، وحمد على النِّعم والعطايا والهبات؛ فالله يحمد على أسمائه وصفاته، ويحمد على نعمه وعطاياه وآلائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا الشُّكر: فإنَّه لا يكون إلَّا على الإنعام**» أي: لا يكون على المحاسن، «**فهو أخصُّ من الحمد من هذا الوجه، لكنَّه**» أي: الشُّكر «**يكون بالقلب واليد واللِّسان**» يكون بالقلب اعترافًا بإنعام المنعم وتفضُّل المُتَفضِّل سبحانه، ويكون باللِّسان حمدًا وثناءً، ويكون بالجوارح استعمالًا لها في طاعة الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، «**ولهذا قال تعالى:** ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [**سبأ:١٣**]» فالعمل بطاعة الله، واستعمال النِّعمة فيما يُرضي الله؛ هذا من شكر النِّعمة.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والحمد إنَّما يكون بالقلب واللِّسان**».

فالشُّكر بالقلب واللِّسان والجوارح، والحمد بالقلب واللِّسان فقط؛ فالشُّكر بهذا الاعتبار أعمُّ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمن هذا الوجه الشُّكر أعمُّ من جهة أنواعه**» أي: باللِّسان والقلب والجوارح، «**والحمد أعمُّ من جهة أسبابه**» على الإحسان والمحاسن، وأمَّا الشُّكر فعلى الإحسان فقط.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والألف واللَّام في قوله:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **للاستغراق**» معنى ذلك: أنَّ جميع أنواع الحمد لله لا لغيره.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأمَّا الَّذِي لا صنع للخلق فيه، مثل: خلق الإنسان، وخلق السَّمع والبصر، وخلق السَّماء والأرض، والأرزاق، وغير ذلك فواضح**»، أي: كون الحمد في هذا كلِّه لله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا ما يحمد عليه المخلوق، مثل: ما يثنى به على الصَّالحين والأنبياء والمرسلين، وعلى مَن فعل معروفًا -خصوصًا إن أسداه إليك- فهذا كلُّه لله أيضًا**».

لأنَّ هؤلاء كلَّهم لم يفعلوا ذلك إلَّا بمدد الله وعونه وتوفيقه لهم وتسديده؛ فهو مِنَّة من الله عليهم؛ فإذًا الحمد كلُّه لله.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذا كلُّه أيضًا لله بمعنى أنَّه خلق ذلك الفاعل، وأعطاه ما فعل به ذلك، وحبَّبه إليه، وقوَّاه عليه، وغير ذلك من أفضال الله الَّذِي لو يختلُّ بعضها لم يحمد ذلك المحمود**».

أي: لولا عون الله لمَن أسدى إليك معروفًا وتيسيره وتفضُّله عليه لما حصل لك منه ذلك؛ لكنَّ هذا فضل الله، «**فصار الحمد كلُّه لله بهذا الاعتبار**».

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالله: عَلَمٌ على ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومعناه: الإله، أي: المعبود، لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]. أي: المعبود في السَّماوات، والمعبود في الأرض، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] الآيتين.

وأمَّا «الرَّبُّ» فمعناه: المالك المُتَصَرِّف.

وأمَّا ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو اسم لكُلِّ ما سوى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فكُلُّ ما سواه -من مَلَكٍ، ونَبِيٍّ، وإنسيٍّ، وجنِّيٍّ، وغير ذلك- مربوبٌ، مقهورٌ، يُتَصَرَّف فيه، فقيرٌ محتاجٌ؛ كلُّهم صامدون إلى واحد لا شريك له في ذلك، وهو الغنيُّ الصَّمد.

وذكر بعد ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وفي قراءة أخرى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ فذكر في أوَّل هذه السُّورة، الَّتي هي أوَّل المصحف: الألوهيَّة، والرُّبوبيَّة، والملك.

كما ذكره في آخر سورة في المصحف: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٣].

فهذه ثلاثة أوصاف لربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ذكرها مجموعة في موضع واحد في أوَّل القرآن؛ ثمَّ ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك من القرآن؛ فينبغي لمَن نصح نفسه: أن يعتني بهذا الموضع، ويبذل جهده في البحث عنه، ويعلم أنَّ العليم الخبير لم يجمع بينهما في أوَّل القرآن ثمَّ في آخره إلَّا لما يعلم من شدَّة حاجة العباد إلى معرفتها، ومعرفة الفرق بين هذه الصِّفات؛ فكُلُّ صفة

لها معنى غير معنى الصِّفة الأخرى، كما يقال: محمَّد رسول الله، وخاتم النَّبيِّين، وسيِّد ولد آدم؛ فكُلُّ وصف له معنى غير ذلك الوصف الآخر».

الشَّرح

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالله: عَلَمٌ على ربِّنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، **ومعناه: الإله، أي: المعبود».**

معنى الله: أي المعبود، وأحسن ما قيل في تفسير هذا الاسم ما رُوِيَ عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الله ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين»(١).

الألوهيَّة: أي صفات الكمال، ونعوت الجلال، الَّتِي بها استحقَّ أن يُؤله، ويُعبد، ويُخضع له ويُذلُّ.

والعبوديَّة: أي ما يقوم به العبد مما يقتضيه هذا الاسم من الخضوع والذُّلِّ والانكسار لله، والطَّواعية لله عَزَّوَجَلَّ.

فالإله هو المعبود المستحقُّ لأن يُعْبَد، وأن يُفْرَد وحده بالعبادة، وألَّا يُجعل معه شريك في شيء منها.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ومعناه: الإله، أي: المعبود لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]. أي: المعبود في السَّماوات، والمعبود في الأرض».**

أي: معبود في السَّماء تعبده الملائكة، قال ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ**»(٢)، وفي الأرض يعبده مَن

(١) انظر: تفسير الطَّبريِّ (١/ ١٢٣).

(٢) رواه أحمد (٢١٥١٥)، والتِّرمذيُّ (٢٣١٢)، عن أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٠٢٠).

وفَّقهم الله لعبادته من الثَّقلين، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، **أي: المعبود في السَّماوات والمعبود في الأرض،** ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم:٩٣]».

أورد هذه الآية الثَّانية توضيحًا لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: المعبود يُعبد في السَّماء، ويُعبد في الأرض، كما في الآية الأخرى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأمَّا الرَّبُّ فمعناه: الملك المُتَصَرِّف».**

معنى الرَّبِّ: الَّذِي بيده الملك والتَّصرُّف والتَّدبير؛ فهو المالك لهذا الخلق لا شريك له، المُتَصَرِّف فيه لا شريك له؛ بيده العطاء والمنع، والخفض والرَّفع، والقبض والبسط، والعِزُّ والذُّلُّ، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ [آل عمران:٢٦]. اجتمع في الآية المعنيان: الملك والتَّصرُّف.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأمَّا ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو اسمٌ لكُلِّ ما سوى الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **فكُلُّ ما سواه من مَلَك، ونبيٍّ، وإنسيٍّ، وجنِّيٍّ، وغير ذلك مربوبٌ، مقهورٌ، يُتَصَرَّف فيه، فقيرٌ محتاجٌ؛ كلُّهم صامدون إلى واحد لا شريك له في ذلك، وهو الغنيُّ الصَّمد».**

فكُلُّ مَن سوى الله عالم، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: ربِّ كُلِّ شيء، فكُلُّ مَن سوى الله مربوب مخلوق مقهور تحت تصرُّفه وتدبيره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ،

محتاج إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقير إليه، «**كلُّهم صامدون إلى واحد لا شريك له في ذلك، وهو الغنيُّ الصَّمد**»، الغنيُّ عمَّن سواه، والصَّمد تصمد إليه جميع المخلوقات، أي: كلُّها فقيرة إليه، وكلُّها محتاجة إليه، ولا غنى لها عنه طرفة عين.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وذكر بعد ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وفي قراءة أخرى: ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾**».

«وتخصيص الملك بيوم الدِّين لا ينفيه عمَّا عداه؛ لأنَّه قد تقدَّم الإخبار بأنَّه ربُّ العالمين، وذلك عامٌّ في الدُّنيا والآخرة، وإنَّما أضيف إلى يوم الدِّين؛ لأنَّه لا يُدْعَى أحد هنالك شيئًا»(١).

وتأمَّل هذه الأسماء: الله، الرَّبّ، الملك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، «**فذكر في أوَّل هذه السُّورة، الَّتي هي أوَّل المصحف: الألوهيَّة، والرُّبوبيَّة، والملك**»، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الألوهيَّة، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الرُّبوبيَّة، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الملك؛ «**كما ذكره في آخر سورة في المصحف: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٣]**»، وهي سورة النَّاس؛ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ الرُّبوبيَّة، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ الملك، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الألوهيَّة، فاجتمعت هذه الأوصاف في أوَّل سورة، وفي آخر سورة.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذه ثلاثة أوصاف لربِّنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **ذكرها مجموعة في موضع واحد في أوَّل القرآن؛ ثمَّ ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك من القرآن**».

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧).

وهذا بل ريب يدل على عظيم شأن هذه الأوصاف الثلاثة للرب سبحانه؛ ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فينبغي لمَن نصح نفسه: أن يعتني بهذا الموضع، ويبذل جهده في البحث عنه، ويعلم أنَّ العليم الخبير لم يجمع بينهما في أوَّل القرآن، ثمَّ في آخر القرآن إلَّا لما يعلم من شدَّة حاجة العباد إلى معرفتها، ومعرفة الفرق بين هذه الصِّفات**»، فتأكَّد على العبد أن تعظم عنايته بها فهمًا وتدبُّرًا، ومعرفة بالفرق بين هذه الصِّفات.

فعندما تقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثمَّ تقرأ في سورة النَّاس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، هل المعنى واحد، وهل العطف عطف مترادفات؟ كلَّا «**فكُلُّ صفة لها معنى غير معنى الصِّفة الأخرى، كما يقال: محمَّد رسول الله، وخاتم النَّبيِّين، وسيِّد ولد آدم؛ فكُلُّ وصف له معنى غير ذلك الوصف الآخر**»، فهذه ثلاث صفات للنَّبِيِّ ﷺ وليس المعنى واحد:

الأولى: فيها وصفه بالرَّسول، **والثَّانية:** فيها أنَّه خاتم النَّبيِّين، **والثَّالثة:** فيها أنَّه سيِّد ولد آدم.

كذلك: ربُّ النَّاس، ملك النَّاس، إله النَّاس هذه ثلاث صفات لله.

فكُلُّ وصف من هذه الأوصاف له معنى غير معنى الآخر؛ فلا بُدَّ من العناية بمعرفة ما دلَّت عليه من أوصاف.

فسل نفسك إذًا: ما معنى الإله؟ وما معنى الرَّبِّ؟ وما معنى الملك؟ وما هي العبوديَّات الَّتِي يقتضيها كلُّ اسم من هذه الأسماء؟ لأنَّ كلَّ اسم من أسماء الله له عبوديَّة تخصُّه، ويقتضيها الإيمان به.

«فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله، وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبوديَّة الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبَّة خاصَّة بمنزلة أنواع العبوديَّة، فرجعت العبوديَّة كلّها إلى مقتضى الأسماء والصِّفات»[١].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٩٠).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«إذا عرفت أنَّ معنى الله: هو الإله؛ وعرفت أنَّ الإله: هو المعبود، ثمَّ دعوت الله، أو ذبحت له، أو نذرت له، فقد عرفت أنَّه الله؛ فإن دعوت مخلوقًا: طيِّبًا أو خبيثًا، أو ذبحت له، أو نذرت له، فقد زعمت أنَّه هو الله.**

فمَن عرف أنَّه قد جعل «شمسان» أو «تاجًا» برهة من عمره هو الله، عرفَ ما عرفتْ بنو إسرائيل لمَّا عبدوا العجل، فلمَّا تبيَّن لهم ارتاعوا، وقالوا ما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]».

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -بعد تأكيده على العناية بهذه الأسماء الثَّلاثة: الله، الرَّبِّ، الملك، وفهمها، وذكر الفروق بين ما دلَّت عليه من صفات، أخذ يُبيِّن بعض المعاني والدَّلالات المستفادة من هذه الأسماء-: **«إذا عرفت: أنَّ معنى الله: هو الإله، وعرفت أنَّ الإله: هو المعبود»** فإنَّ معنى ذلك أنَّ العبادة كلَّها له؛ لأنَّه هو إله الأوَّلين والآخرين، والمعبود بحقٍّ، ولا معبود بحقٍّ سواه، فالعبادة كلُّها له: من صلاة، أو صيام، أو دعاء، أو ذبح، أو نذر، أو توكُّل، أو غير ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ثمَّ دَعَوْتَ الله، أو ذبحْتَ له، أو نذرْتَ له، فقد عَرَفْتَ أنَّه الله».**

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، إذا جعلت صلاتك، ودعاءك، ورجاءك، وذبحك، ونذرك، إلى غير ذلك من العبادة جعلتها كلَّها لله؛ فقد عرفت أنَّه هو الله، وأنَّه هو المعبود

بحقٍّ، ولا معبود بحقٍّ سواه، أمَّا مَن يجعل مع الله شريكًا في حقوقه؛ كالَّذِي يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، أيًّا كان هذا الغير؛ فما عرف أنَّ الله هو ذو الألوهيَّة وحده لا شريك له، المعبود بحقٍّ لا شريك له، ولهذا جعل معه آلهة، والله يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النَّحل:٥١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإن دَعَوْتَ مخلوقًا: طيِّبًا أو خبيثًا، أو ذَبَحْتَ له، أو نَذَرْتَ له، فقد زعمت أنَّه هو الله**»؛ لأنَّه بإعطائه شيئًا من حقوق الله جعله إلهًا، واتَّخذه ندًّا لله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمَن عرف أنَّه قد جعل «شمسان» أو «تاجًا» برهة من عمره هو الله**».

هذه الأسماء أسماء أشخاص في زمانه، كانوا يُعبدون، ويُعَظَّمون التَّعظيم الَّذِي لا يكون إلَّا لله، يُذبح لهم، ويُنذر، **شمسان**: كان له أولاد -كما جاء في كتب التَّراجِم- يأمرون النَّاس ويندبونهم لينذروا له، ويعتقدون فيه، وأمَّا **تاج**: فكان بعض النَّاس في تلك الفترة يعتقدون فيه الولاية، ويأتونه لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وتيسير الأمور، وغير ذلك، ولا يزال مع مرِّ التَّاريخ باختلاف المناطق تظهر أسماء يُعتقد فيها، وتجد المبتلين بذلك في تلك المناطق يلجؤون إليها؛ إذا مرض أحدهم لا يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي**»[(١)]. بل يبحث عن أحد هؤلاء المقبورين يلتجئ إليه، وينذر له، ويذبح، يطلب منه شفاء سقمه وقضاء حاجته.

هل مَن يفعل ذلك عرف الله بأنَّه هو الله المعبود بحقٍّ ولا معبود بحقٍّ سواه؟

(١) رواه البخاريُّ (٥٧٤٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لا ريب أن واقعه العمليَّ وحياته التَّطبيقيَّة تدلُّ على أنَّه ما عرف أنَّ الله هو ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين، وأنَّ العبادة حقٌّ له، ولا يجوز صرف شيء منها لغيره.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**عرف ما عرفت بنو إسرائيل لمَّا عبدوا العجل، فلمَّا تبيَّن لهم ارتاعوا**» ارتاعوا: أي خافوا، «**وقالوا ما ذكر الله عنهم:** ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ **[الأعراف: ١٤٩]**».

كذلك الَّذِي ابتلي فترة من عمره بعبادة القبور، والاستغاثة بالمقبورين: «مدد يا فلان -وأدركني يا فلان- وأنا عائذ بك يا فلان» إلى آخره؛ ثمَّ يعرف أنَّه بهذه الأعمال يناقض كلمة التَّوحيد: لا إله إلَّا الله، ويُناقض زبدة دعوة المرسلين؛ إذا تبيَّن له يرتاع، ويدرك الخطر الجسيم الَّذِي كان فيه، وهذا واقع، فعدد من النَّاس مضى فترة من عمره وهو يفزع في الملمَّات والحاجات لغير الله، ويلتجئ إلى غير الله، ثمَّ أنار الله بصيرته، وعرف التَّوحيد، وعرف هذه المعاني؛ فتاب وارتاع من تلك الحال السَّيِّئة البئيسة الَّتِي كان عليها، وأدام حمد الله على نعمة الهداية، والنَّجاة من الضَّلال.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الرَّبُّ فمعناه: المالك المُتَصَرِّف، فالله تعالى مالك كُلِّ شيء، وهو المُتَصَرِّف فيه، وهذا حقٌّ، ولكن أقرَّ به عُبَّاد الأصنام الَّذِين قاتلهم رسول الله ﷺ، كما ذكر الله عنهم في القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣١-٣٢].

فمَن دعا الله في تفريج كربته، وقضاء حاجته، ثمَّ دعا مخلوقًا في ذلك، خصوصًا إذا اقترن بدعائه للمخلوق نسبة نفسه إلى عبوديَّته، مثل: قوله في دعائه: فلان عبدك، أو قول: عبد عليٍّ، أو عبد النَّبِيِّ أو الزُّبير؛ فقد أقرَّ له بالرُّبوبيَّة.

وفي دعائه عليًّا أو الزُّبير، أو غيرهما، بدعائه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإقراره له بالعبوديَّة، ليأتِيَ له بخير، أو ليصرف عنه شرًّا، مع تسمية نفسه عبدًا له، قد أقرَّ له بالرُّبوبيَّة، ولم يُقرَّ لله بأنَّه ربُّ العالمين كلِّهم، بل جحد بعض ربوبيَّته.

فرحم الله عبدًا نصح نفسه، وتفطَّن لهذه المُهِمَّات، وسأل عن كلام أهل العلم، وهم أهل الصِّراط المستقيم، هل فسَّروا السُّورة بهذا أم لا؟».

الشَّرح

الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلَّم بفقه عظيم في الاعتقاد والتَّوحيد، ويُبيِّن أنَّ ثَمَّ أناسًا يقرؤون هذه الأسماء مجرَّد قراءة، ولم يفقهوا حقيقتها وما تدلُّ عليه، ولهذا يوجد في أعمالهم مناقضة لها، يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. لكن

لا يُخلص الألوهيَّة لله، ويقرأ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ويجعل بعض معاني الرُّبوبيَّة لغير الله، ويقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وعنده من الخلل في تحقيق الإيمان بهذا الاسم الشَّيء الكبير، وهذا كلُّه سببه عدم إعطاء هذه الأسماء حقَّها من الفهم، وعدم تحقيق العبوديَّة الَّتي تختصُّ بهذه الأسماء، وكُلُّ اسم من أسماء الله له عبوديَّة.

فاسم (الله) مدلوله أن يُعَظَّم ويُفْرَد وحده بالعبادة؛ فمَن ذبح لغير الله، أو دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، أو قال في دعائه: مدد يا فلان، أدركني يا فلان، أو نحو ذلك؛ لم يُحَقِّق العبوديَّة المختصَّة بهذا الاسم؛ الله ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين، لا شريك له في ذلك، لا إله إلَّا الله هو المعبود بحقٍّ، ولا معبود بحقٍّ سواه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الرَّبُّ فمعناه المالك المُتَصَرِّف، فالله تعالى مالك كُلِّ شيء وهو المُتَصَرِّف فيه».

ربُّ العالمين أي: مالكهم المُتَفَرِّد بالملك، له ملك السَّماوات والأرض، والنَّاس والجبال والدَّوابُّ والشَّجر وكلُّ شيء ملك له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومَن سواه لا يملك في هذا الكون مثقال ذرَّة ملكًا استقلاليًّا؛ قد يملك أشياء بتمليك الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ له إيَّاها، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦].

الملك كلُّه لله هو «ربُّ العالمين» أي: ملكهم كلِّهم، قال الله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

ومعناه أيضًا المُتَصَرِّف في هذا الكون تدبيرًا، وعطاءً ومنعًا، وخفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وعِزًّا وذُلًّا، وحياةً وموتًا، هذا كلُّه بيده، هو ربُّهم المُتَصَرِّف فيهم، ما يكون من شيء -حركة أو سكون، حياة أو موت، صحَّة أو سقم، غنى أو فقر، ضحك أو بكاء- إلَّا بأمره وإذنه، الملك ملكه هو «ربُّ العالمين» سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وهذا حقٌّ، ولكن أقرَّ به عُبَّاد الأصنام الَّذِين قاتلهم رسول الله ﷺ»**. يُنبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا الإقرار وحده بأنَّ الله المالك لكُلِّ شيء والمُتَصَرِّف في كُلِّ شيء لا يكفي، ولا ينجي؛ لا يكفي بحيث يكون من أهل التَّوحيد، ولا ينجي من عذاب الله -يوم لقاء الله-.

فإن المشركين قد أقرُّوا أنَّ الله المالك المُتَصَرِّف، ومع هذا الإقرار كانوا كُفَّارًا مشركين، بُعِث فيهم النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ودعاهم إلى الإسلام، ودعاهم إلى التَّوحيد وأمرهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدِّين له، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، مع إقرارهم بأنَّ الله هو المالك الرَّبُّ المُتَصَرِّف.

لكن ما الدَّليل على أنَّ المشركين كانوا يُقرُّون بذلك؟ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«كما ذكر الله عنهم في القرآن في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣١-٣٢]»**.

أي قل: للمشركين عبدة الأصنام، الَّذِين اتَّخذوا مع الله الشُّركاء: مَن الَّذِي

يرزقكم من السَّماء والأرض؟ من السَّماء بنزول الغيث، والأرض بخروج النَّبات، لن يقولوا: اللَّات والعُزَّى ومناة، سيقولون الله.

وقل لهم: مَن الَّذِي يملك السَّمع والأبصار؟ هذه الأسماع والأبصار والحواسُّ الَّتِي تتمتَّعون بها أنتم وغيركم.

وقل لهم: مَن الَّذِي يُخرج الحيَّ من الميِّت، ويُخرج الميِّت من الحيِّ فيما تعرفون من المخلوقات وفيما لا تعرفون؟

وقل لهم: مَن الَّذِي يُدَبِّر الأمر؛ أمر السَّماوات والأرض وأمركم وأمر الخليقة أجمعين؟

كلُّ هذه الأسئلة إذا قيلت لهم بم يجيبون؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: الله هو الَّذِي يملك السَّمع والأبصار، وهو الَّذِي يُنزِّل الأرزاق، وهو الَّذِي يُدَبِّر الأمر، وهو الَّذِي بيده الحياة والموت.

لن يقولوا: إنَّ هذه الأشياء بأيدي الأصنام، أو أنَّها تملك أو تُدَبِّر.

وإذا قيل لهم: لم تعبدونها وأنتم تعتقدون أنَّها لا تملك شيئًا من ذلك؟ قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر:٣]. لا نعبدهم لأنَّنا نعتقد أنَّهم يملكون ويرزقون ويُدَبِّرون، لا نعتقد ذلك فيهم؛ ولهذا كان المشركون يقولون في تلبيتهم الشِّركيَّة: «لبيَّك لا شريك لك، قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فيقول رسول الله ﷺ: «**وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ**» فيقولون: **إلَّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك**»[1].

فهذه الآية دليل على الأمرين: الملك والتَّصريف؛ لأنَّ معنى الرَّبِّ: المالك

---

(١) رواه مسلم (١١٨٥).

الْمُتَصَرِّف، فهذان المعنيان كان يُقِرُّ بهما المشركون، الملك في قوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾، والتَّصرُّف في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ لكن مع إقرارهم بأنَّ الملك لله، وأنَّ التَّدبير بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يشركون باتِّخاذ الأنداد، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]. أي: مع هذا الإقرار لا تتَّقون الله فتخلصون له الدِّين، وتبتعدون عن اتِّخاذ الأنداد والشُّركاء مع الله ربِّ العالمين، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]. فكيف تُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه مع جلاء هذا الأمر ووضوح هذه الحجج والبراهين.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فمَن دعا الله في تفريج كربته، وقضاء حاجته، ثمَّ دعا مخلوقًا في ذلك، خصوصًا إذا اقترن بدعائه للمخلوق نسبة نفسه إلى عبوديَّته، مثل: قوله في دعائه: فلان عبدك، أو قول: عبد عليٍّ، أو عبد النَّبِيِّ أو الزُّبير؛ فقد أقرَّ له بالرُّبوبيَّة»**.

دعاؤه له، ونسبته نفسه إليه بأنَّه عبد له، والعبوديَّة تتناول معنيين: عبوديَّة لألوهيَّة الله بإخلاص الدِّين له، وعبوديَّة لربوبيَّة الله بأنَّه مُذلَّل ومخلوق له، «عبد الله» أو «عبد الرَّحمن» أي: يعبد الله، وهو معبَّد؛ لأنَّ العبد يُراد به العابد، ويُراد به المعبد، فعندما ينسب نفسه له في العبوديَّة فيقول: عبد عليٍّ أو عبد النَّبِيِّ أو عبد الزُّبير أو غير ذلك، هذا كما أنَّه خلل في العبوديَّة، خلل في الرُّبوبيَّة، ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فقد أقرَّ له بالرُّبوبيَّة**».

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ولم يُقرَّ لله بأنَّه ربُّ العالمين كلِّهم، بل جحد بعض ربوبيَّته»**.

لأنَّه عندما عبَّد نفسه لغير الله؛ إمَّا لعليٍّ، أو للنَّبِيِّ، لم يُقِرَّ بأنَّ الله ربُّ

العالمين كلِّهم، بل جعل لغيره نصيبًا منها؛ وهذا من جنس صنيع المشركين الأُوَل، يُعَبِّدون أنفسهم لغير الله: عبد شمس، عبد العُزَّى، عبد مناة، إلى غير ذلك.

يقول **شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشريعة الإسلام الَّذِي هو الدِّين الخالص لله وحده: تعبيد الخلق لربِّهم، كما سنَّه رسول الله ﷺ، وتغيير الأسماء الشِّركيَّة إلى الأسماء الإسلاميَّة، والأسماء الكفريَّة إلى الأسماء الإيمانيَّة؛ وعامَّة ما سمَّى به النَّبِيُّ ﷺ: عبد الله، وعبد الرَّحمن»[1].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فرحم الله عبدًا نصح نفسه، وتفطَّن لهذه المُهِمَّات، وسأل عن كلام أهل العلم، وهم أهل الصِّراط المستقيم، هل فسَّروا السُّورة بهذا أم لا؟**».

وهذا من جميل نصح الشَّيخ، يقول: انظر كلام أهل العلم الرَّاسخين، وطالع كلام المُفَسِّرين المُحَقِّقين، وتأمَّل كلام الأئمَّة المعتبرين في معاني هذه الآيات، واسألِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حقًّا وصدقًا أن يهديك إلى صراطه المستقيم، وأن يُجَنِّبك هذه المنزلقات الخطيرة المهلكة.

وفيه أنَّ هذا الكلام لم يأتِ به الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنشاءً من عند نفسه؛ وإنَّما هو كلام أهل العلم والبصيرة في فهم كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمَّا ذاك الَّذِي انحرف وأخذ يُعبِّد نفسه أو أولاده لغير الله: عبد عليٍّ أو عبد الزُّبير أو عبد النَّبِيِّ أو عبد الرَّسول أو غير ذلك، ثمَّ في المناجاة يفزع لغير الله: مدد يا فلان، أدركني يا فلان، أنا عائذ بك يا فلان، أين إقراره لله بالعبوديَّة! وأين إيمانه بأنَّ الله ربُّ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١/ ٣٧٩).

العالمين كلِّهم وعنده هذا الخلل! ثمَّ إن كان يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ويقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٣]، هل هو من أهل هذه الآيات بمجرَّد هذه القراءة مع قيامه بأعمال تناقضها وتصادمها وتعارضها؟ لا والله، لا يكون من أهل هذه الآيات حتَّى يفهم ما دلَّت عليه، ويُحقِّق العبوديَّة الَّتي تقتضيها.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الملك -فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى- وذلك أنَّ قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وفي القراءة الأخرى: ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فمعناه عند جميع المُفَسِّرين كلِّهم، فَسَّره الله في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، فمَن عرف تفسير هذه الآية، وعرف تخصيص المُلك بذلك اليوم، مع أنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مالك كلِّ شيء، ذلك اليوم وغيره، عرف أنَّ التَّخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة، الَّتي بسبب معرفتها دخل الجنَّة مَن دخلها، وبسبب الجهل بها دخل النَّار مَن دخلها.

فيا لها من مسألة لو رحل الرَّجل فيها أكثر من عشرين سنة لم يُوَفِّها حقَّها، فأين هذا المعنى والإيمان بما صرَّح به القرآن، مع قوله ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١). من قول صاحب البردة:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلَّى باسم منتقم

فإنَّ لي ذمَّة منه بتسميتي ... محمَّدًا وهو أوفى الخلق بالذِّمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلَّا فقل يا زلَّة القدم

فليتأمَّل مَن نصح نفسه هذه الأبيات ومعناها، ومَن فُتِن بها من العباد، وممَّن يُدْعَى أنَّه من العلماء، واختاروا تلاوتها على تلاوة القرآن؛ هل يجتمع في قلب

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عبد: التَّصديق بهذه الأبيات، والتَّصديق بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، وقوله: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[1]. لا والله، لا والله؛ لا والله! إلَّا كما يجتمع في قلبه: أنَّ موسى صادق، وأنَّ فرعون صادق، وأنَّ محمَّدًا صادق على الحقِّ، وأنَّ أبا جهل صادق على الحقِّ.

والله ما استويا، ولن يتلاقيا حتَّى تشيب مفارق الغربان[2]

فمَن عرف هذه المسألة، وعرف البردة، ومَن فُتِن بها، عرف غربة الإسلام، وعرف أنَّ العداوة واستحلال دمائنا وأموالنا ونسائنا، ليس عند التَّكفير والقتال، بل هم الَّذين بدؤونا بالتَّكفير والقتال، بل عند قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنُّ:١٨]. وعند قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرَّعد:١٤].

فهذا بعض المعاني في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، بإجماع المُفسِّرين كلِّهم. وقد فسَّرها الله سبحانه في سورة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١]، كما قدَّمت لك».

الشَّرح

يُبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلَّق بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وفي قراءة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ووجه التَّخصيص بملك يوم الدِّين؛ مع أنَّ الله مالك كُلِّ شيء: الدُّنيا والآخرة،

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) نونيَّة ابن القيِّم (ص٩٤).

والسَّماوات والأرض، ومالك كلِّ شيء، فما وجه التَّخصيص بيوم الدِّين، أي: الحساب، والله عَزَّوَجَلَّ من أسمائه الحسنى «الدَّيَّان» كما في الحديث القُدُسيِّ: «**أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ**»[(١)]، أي: المجازي والمحاسب، فمالك يوم الدِّين، أي: مالك الحساب، ومالك الجزاء عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمعناه عند جميع المُفَسِّرين كلِّهم فسَّره الله في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]».

عندما تقرأ مالك أو ملك يوم الدِّين، ما المراد بيوم الدِّين؟ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُفسِّر لك ذلك الآية الَّتي في الانفطار، وهي قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، والشَّيخ له مقصد عقديٌّ عظيم بإيراده الآية: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ﴾، ثلاث نكرات في سياق النَّفي، والنَّكرة تفيد العموم: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ﴾، أي: مهما عظمت، وبلغت مكانها وجاهها ومنزلتها، ﴿لِّنَفۡسٍ﴾: مهما كانت عزيزة وغالية عندها، ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: وإن قلَّ، لا تملك شيئًا، الملك كلُّه لله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

ولما ذكر نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الغلول، وعظَّم أمره، قال: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ**» -أي: ذهب أو فضَّة- «**فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ**

(١) رواه أحمد (١٦٠٤٢) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والبخاريُّ تعليقًا (٩/ ١٤١).

لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ»[١].

وصحَّ في الحديث أنَّ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ «**يَلْقَى أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ» ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[٢]. هذا قول الله لخليله إبراهيم: إنِّي حرَّمت الجنَّة على الكافرين، فيُلقى والده في نار جهنَّم، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾.

ولهذا قال نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لفاطمة ابنته: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[٣] وخاطب بهذا الخطاب عشيرته، وعمَّته صفيَّة، وعمَّه؛ عمَّم وخصَّص بهذا الخطاب، والله قال في القرآن: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. الأمر لله، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

إذًا نحتاج أن نتفقَّه في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فمَن يقول مخاطبًا الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إن لم تأخذ بيدي -يعني يوم القيامة- فيا زلَّة القدم، هل فهِم ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إن مَن فهِم هذه الآية يقول: يا ربِّ إن لم تأخذ بيدي يا زلَّة

(١) رواه البخاريُّ (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه البخاريُّ (٣٣٥٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القدم، فالأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ويُطلب منه وحده، وكان نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يلجأ في دعائه إلى الله وحده، ويقول كُلَّ ليلة إذا أراد أن ينام: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»[(١)]. المفرُّ إلى الله، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذَّاريات:٥٠]، واللُّجوء إلى الله، والفزع إليه وحده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فمَن عرف تفسير هذه الآية، وعرف تخصيص المُلْك بذلك اليوم، مع أنَّه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **مالك كُلِّ شيء؛ ذلك اليوم وغيره، عرف أنَّ التَّخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة الَّتِي بسبب معرفتها دخل الجنَّة مَن دخلها، وبسبب الجهل بها دخل النَّار مَن دخلها».**

فمَن عرف هذه المسألة الَّتِي لأجلها خُصِّص يوم الدِّين بالذِّكر هنا ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: النَّجاة والفوز والسَّلامة من سخط الله وعقابه، والفوز بجنَّته، والنَّجاة من ناره؛ كلُّ ذلك بيده.

فمَن فقِه هذه المسألة حقًّا، وفهِم المراد وأنَّه ذلك اليوم، ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، لا يمكن أن يدعو مخلوقًا من المخلوقات - مهما بلغ شأنه قائلًا: إن لم تأخذ بيدي فسأكون من الخاسرين.

وهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فالعبد إن لم يُنَجِّه الله أو يكتب الله له النَّجاة كان من الخاسرين.

فمَن عرف ما تقدَّم لن يقول في دعائه إلَّا: مدد يا الله، أسألك يا الله، لطفك يا الله، أدعوك يا الله، لا يتجاوز ذلك؛ لأنَّه سبحانه الملك لا ندَّ له.

أمَّا أهل الخرافة وأهل الضَّلال فهم أبعد ما يكونون عن فهم: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠) عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ٱلدِّينِ﴾، ويكثر عند أئمَّتهم الدَّجل على الأتباع، يقول أحدهم لأتباعه: لا عليكم يوم القيامة، أبصق على النَّار؛ وتصبح حشيشًا أخضر.

ويقول آخر: ليس بشيخ مَن لا يأخذ كُلَّ واحد من مريديه بيده ويُدخله الجنَّة.

يستخِفُّون بذلك عقول العوامِّ والجهلة فيتعلَّقون بهم في حياتهم وبعد مماتهم، ولهذا يفزعون إليهم، ويذهبون إلى قبورهم، ويناجونهم: مدد، وأدركنا... إلخ، وأصبح هؤلاء الجُهَّال يتعلَّقون بأشياخ وأشخاص وذوات، ويلجؤون إليهم، ويفزعون إليهم، ويطلبون منهم، حتَّى إنَّ بعضهم يقول في مناجاته: «ما لي مَن ألوذ به سواك» أي لا يوجد مَن ألتجئ إليه إلَّا أنت؛ يخاطب النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويقول: «إن لم تأخذ بيدي فيا زلَّة القدم»؛ أين الإيمان بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾!!

وعليه فإنَّ مَن ءامن بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ حقَّ الإيمان ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ لن يدعو إلَّا الله، ولن يلتجئ إلَّا إلى الله، ولن يفزع إلَّا إلى الله، ولن يطلب نجاته إلَّا من الله، ويدخله هذا الإيمان الجنَّة، ومَن جهِلها ضل ودخل في متاهات الشرك الموجبة لدخول النَّار.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فيا لها من مسألة لو رحل الرَّجل فيها أكثر من عشرين سنة لم يُوَفِّها حقَّها».**

مسألة عظيمة هي أثمن وأغلى ما يكون، فبسبب فهمها دخل الجنَّة مَن دخلها، وبسبب عدم فهمها دخل النَّار مَن دخلها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأين هذا المعنى والإيمان بما صرَّح به القرآن، مع قوله ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١). وما جاء من آيات وأحاديث في هذا المعنى!

أين هذا «من قول صاحب البردة:

ولـن يضيق رسـول اللـه جاهك بي ... إذا الكريـم تحلَّـى باسـم منتقـم

فــإنَّ لــي ذمَّــة منــه بتسميتــي ... محمَّـدًا وهو أوفـى الخلـق بالذِّمم

إن لـم تكن فـي معادي آخـذًا بيدي ... فضـلًا وإلَّا فقـل يـا زلَّـة القـدم»

ثمَّ يقول أيضًا:

يـا أكـرم الخلـق ما لـي من ألـوذ به ... سـواك عند حلـول الحـادث العمم

وإنَّ مـن جـودك الدُّنيـا وضرَّتهـا ... وإنَّ من علومك علـم اللَّوح والقلم

إذًا ماذا أبقى لله؟! ولو أنَّه قال: يا خالق الخلق -مخاطبًا الله- ما لي مَن ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم، وإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها، وإنَّ من علومك علم اللَّوح والقلم؛ لكان قوله توحيدًا وإخلاصًا، ومناجاة لله، بل يكون قد جمع في هذه المناجاة أنواع التَّوحيد الثَّلاثة.

فقوله: يا خالق الخلق ما لي من ألوذ به سواك، هذا توحيد الإلهيَّة.

وقوله: وإنَّ من جودك الدُّنيا وضرَّتها، هذا توحيد في الرُّبوبيَّة.

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: وإنَّ من علومك علم اللَّوح والقلم، هذا توحيد في الأسماء والصِّفات.

فلمَّا غُير الخطاب وخوطب به المخلوق صار شركًا وتنديدًا؛ لأنَّ الشِّرك والتَّنديد هو تسوية غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائصه، وهذا جمع ذلك كلَّه.

وقد سمِع النَّبيُّ ﷺ امرأة تقول: «**وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ**»، فقال: «**مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ**»(١).

وسمع رجلًا يقول: «**مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ**»، فَقَالَ ﷺ: «**جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا، مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(٢). أي: ندًّا، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقول هذا القائل:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلَّى باسم منتقم
فإنَّ لي ذمَّة منه بتسميتي ... محمَّدًا وهو أوفى الخلق بالذِّمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلَّا فقل يا زلَّة القدم

هذا لجوء إلى الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ جاهك لن يضيق بي؛ وخاصَّة أنَّ اسمي مثل اسمك محمَّد، فلي بذلك منه ذمَّة؛ وهو أوفى الخلق بالذِّمم: وأين الدَّليل على أنَّ كلَّ مَن اسمه محمَّد له حقٌّ خاصٌّ؟ إذًا كلُّ واحد يُسَمِّي أولاده

(١) رواه ابن ماجه (١٨٩٧) عن الرَّبيع بنت مُعَوِّذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٩٠٣).

(٢) رواه أحمد (٣٢٤٦) عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بهذا الاسم؛ وأيًّا كانت حالهم، وأيًّا كانت أعمالهم؛ لهم ذمَّة عند النَّبِيِّ ﷺ أن يأخذ بيدهم، وتكون لهم النَّجاة يوم القيامة، أيُّ فَهْم هذا لتوحيد الله!

ولعلَّه بسبب هذا وجد في بعض الأمكنة تسمية الرَّجل أولاده كلَّهم بهذا الاسم، وللتَّفرقة بينهم يضيف الأرقام: محمَّد الأوَّل، محمَّد الثَّاني، إلى آخره.

وعندما يسمع بعض العوامِّ والجُهَّال مثل ذلك يقول: ما دام أنَّ اسمي محمَّدًا لو فعلت ما فعلت؛ لي ذمَّة عنده، حتَّى لو كان منِّي ما كان من أعمال أو شنائع أو غير ذلك.

ثمَّ يقول:

إن لـم تكن فـي معادي آخـذًا بيدي ... فضـلًا وإلَّا فقـل يـا زلَّـة القـدم

«**إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي**» أي: الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**فضلًا**» أي: فضلًا منه وتكرُّمًا وإحسانًا «**وإلَّا فقل يا زلَّة القدم**»، أي: سأكون من الخاسرين.

هل الَّذي قال هذه الأبيات، وكذا مَن يُرَدِّدها هل فهم: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، هل فهم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾؟ لا، والله ما فهِمها.

ثمَّ بعضهم يُسمِّي البُردة: البُرأة؛ يقولون: إنَّها نافعة للمريض، مثل ما تُسمَّى الفاتحة: الشَّافية؛ ويوصون بأن تكتب في إناء ويُصبُّ عليه الماء، ويشرب منها المريض، وأنَّ فيها شفاء، وأيُّ شفاء في هذا الالتجاء لغير الله؟ ما كان الشِّرك والالتجاء إلى غير الله شفاءً؛ بل هذا هو المرض العضال، والدَّاء الَّذي لا أعظم منه.

الشِّفاء في التَّوحيد والإخلاص، وسورة الفاتحة شافية، وآية الكرسيِّ شافية؛ لأنَّها كلَّها توحيد، آية الكرسيِّ كلُّها لجوء إلى الله، وفزع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكذلك ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، كلُّه لجوء إلى الله، وهذا هو الشِّفاء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فليتأمَّل مَن نصح نفسه هذه الأبيات ومعناها، ومَن فُتن بها من العباد، وممَّن يدعى أنَّه من العلماء، واختاروا تلاوتها على تلاوة القرآن»**.

حتَّى إنَّ بعضهم يقول: البُردة لا يجوز أن تُقرأ إلَّا بطهارة، ولا يجوز أن تُقرأ قراءة عادية، بل ترتَّل ترتيلًا، وبخشوع، ويَعُدُّونها رُقية، وتُقرأ على المريض، وأشياء كثيرة يُضفونها على هذه الأبيات.

إذًا ما أحوج هؤلاء إلى التَّفقُّه في هذه الآية ونظائرها من القرآن لينجوا من هذا الضَّلال وليسلموا من هذا الباطل.

ويُلمح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أمر جليل ينجِّي من هذا الضَّلال -خاصَّة مَن نشأ في مجتمع ابتُلِيَ بمثل هذه الأمور- أن يُداوي نفسه بالقرآن، ويُكرِّر: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، متفقِّهًا في معناها لعلَّ الله يفتح عليه بتلاوته لهذه الآيات وتأمُّلها؛ الفهم للتَّوحيد واللُّجوء إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده؛ فإنَّه إذا كرَّر هذه الآيات وأخذ يتفقَّه حتَّى يفهم ويعي التَّوحيد الَّذي فيها لن يقول أبدًا مخاطبًا الرَّسول ﷺ أو غيره: ما لي مَن ألوذ به سواك، لن يقول إلَّا: ما لي مَن ألوذ به إلَّا مالك يوم الدِّين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مالك الأوَّلين والآخرين، مالك السَّماوات والأرض وجميع العالمين، المُتصرِّف المُدبِّر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ويدخل في هذا الملك ملك الشَّفاعة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزُّمر:٤٤]، فمَن أراد أن يكون النَّبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شفيعًا له، أو أراد أن يكون الأنبياء والملائكة والصَّالحين شفعاء له؛ فليطلب ذلك من الملك سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النَّجم:٢٦]، لا شفاعة إلَّا بإذن الله، ولا شفاعة إلَّا لمَن رضِي الله عمله وقوله، فمَن أراد الشَّفاعة فليقل: اللَّهُمَّ شفِّع فِيَّ نبيَّك، اللَّهُمَّ شفِّع فِيَّ أنبياءك وملائكتك، يسأل الله وحده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هل يجتمع في قلب عبد التَّصديق بهذه الأبيات والتَّصديق بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، وقوله: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»، لا والله، لا والله؛ لا والله**»[1].

بماذا يجاب عن هذا السُّؤال؟ يحلف الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالله ثلاث مرَّات أنَّه لا يمكن أن تجتمع، وكيف يجتمع شرك وتوحيد، أو حقٌّ وباطل، أو هدى وضلال، وكيف يجتمع ما دلَّت عليه تلك الأبيات مع ما دلَّت عليه هذه الآيات، وتكراره هذا الحلف لشفقته على هؤلاء وحرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نجاتهم وخلاصهم من هذا الضَّلال.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إلَّا كما يجتمع في قلبه: أنَّ موسى صادق، وأنَّ فرعون صادق، وأنَّ محمَّدًا صادق على الحقِّ، وأنَّ أبا جهل صادق على الحقِّ؛ والله ما استويا، ولن يتلاقيا حتَّى تشيب مفارق الغربان**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

والغراب ما تشيب مفارقه؛ أي: هذا لا يمكن أن يقع؛ إذًا إمَّا أن يُوحِّد الله بفهمه هذه الآيات، واعتقاد ما دلَّت عليه، ويُخلص دينه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو يستمرَّ مع تلك الأبيات، ويمضي -والعياذ بالله- مُلتجأ إلى غير الله، وفزعًا إلى غير الله، وستكون النَّدامة الكبرى يوم يلقى الله، ولن ينفعه شيء من تلك التَّعلُّقات، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

ومن الخير للعبد أن ينصح نفسه، وأن يُكرِّر هذه الآيات: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، قراءة فيها تأمُّل لمعانيها وهداياتها، يداوي بها قلبه، وهذا من الاستشفاء بالقرآن، حتَّى يتمكن التَّوحيد والإخلاص في قلبه، فلا يلجأ إلَّا إلى الله، ولا يفزع إلَّا إليه، ولا يطلب إلَّا منه؛ لأنَّ الأمر كلَّه بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فما أحوج العبد إلى التَّأمُّل في هذه المعاني الجليلة العظيمة، وهذا التَّوحيد المستفاد من قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ يتأمَّل فيها، ويتأمَّل هذا التَّخصيص، وما يترتَّب عليه من معاني ودلالات، ويُكرِّر هذا المعنى ويُجيله في نفسه، مداويًا نفسه بذلك، وقراءة آية -كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم»[(١)]- لأنَّك إن قرأت بتدبُّر وفهمت الدَّلالة وعملت بها كنت من أهل هذه الآية، ولو قرأت القرآن بدون فهم وبدون عمل؛ فلن تكون من أهل القرآن، الَّذين هم أهل الله وخاصَّته.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمَن عرف هذه المسألة وعرف البُردة**»، البُردة في الأصل اسمها: «الكواكب الدُّرِّيَّة في مدح خير البريَّة»، ويقولون: إنَّ صاحبها مرض

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٧).

فرأى بزعمه النَّبِيَّ ﷺ في المنام، وألقى عليه بُردته فلبسها فبرئ من مرضه؛ فسُمِّيت البُردة؛ ولذا سمَّاها بعضهم: البُرأة، من البُرءِ وهو الشِّفاء.

وهذا كلُّه من المغالاة والزَّعم الَّذِي يجر العوامَّ والجُهَّال إلى مثل هذه التَّعلُّقات، وكثيرًا ما تُروَّج الخرافة بالرُّؤى، أذكر مرَّة رأيت كتابًا مليئًا بالخرافة، والأدعية الشِّركيَّة، وطلاسم، وأشياء باطلة، فقلت -في نفسي-: مَن الَّذِي يقبل مثل هذا الكلام؟ ثمَّ نظرت في آخر الكتاب وإذ بالمؤَلِّف يقول: إنَّني بعد أن فرغت من هذا الكتاب تردَّدت في نشره، وحبسته عندي مُتَرَدِّدًا في نشره؛ فإذا بالنَّبِيِّ ﷺ جاءني في المنام وقال: إلى متى وأنت حابس هذا الكتاب لا تنشره؟ ثمَّ جاء أبو بكر في المنام، وجاء عمر، وجاء عثمان، وجاء عليٌّ كلُّهم يقول ذلك، قال: فبادرت إلى نشره.

والعوامُّ إذا سمعوا مثل هذا الكلام، مباشرة يعدونه من المتَّفق عليه، ومما لا شكَّ فيه، ولا يحتاج الأمر إلى بحث في صحَّته.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فمَن عرف هذه المسألة وعرف البُردة ومَن فُتِن بها عرف غربة الإسلام».**

عرف أنَّ الإسلام بدأ غريبًا، «وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[(١)]، **«وعرف أنَّ العداوة واستحلال دمائنا وأموالنا ونسائنا، ليس عند التَّكفير والقتال، بل هم الَّذِين بدؤونا بالتَّكفير والقتال، بل عند قوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجنُّ:١٨]. وعند قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرَّعد:١٤]».**

(١) رواه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أي: نقول لهم: ادعو الله، اعبدوا الله، الجؤوا إلى الله، أخلصوا الدِّين لله، نقرأ عليهم هذه الآيات؛ فقاتلونا، وكفَّرونا، والأمر -كما قيل-: «رمتني بدائها وانسلَّت».

لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعوهم للتَّوحيد والإخلاص، ويدعوهم إلى هذه الآيات، يطلب أن يتأمَّلوا في هداياتها؛ ما جاء بإمور أنشأها أو أشياء اخترعها؛ ولا قال: تأمَّلوا كلامي.

بل كان يدعو النَّاس إلى تأمُّل القرآن، وفهمه، ومداواة النَّفس به، فكان داعية حقٍّ لكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذا بعض المعاني في قوله:** ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، **بإجماع المُفَسِّرين كلِّهم. وقد فسَّرها الله سبحانه في سورة:** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١]، **كما قدَّمت لك**».

أي: في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم، أرشدك الله، أنَّ الحقَّ لا يتبيَّن إلَّا بالباطل؛ كما قيل: وبضدِّها تتبيَّن الأشياء؛ فتأمَّل ما ذكرت لك، ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة؛ لعلَّك أن تعرف ملَّة أبيك إبراهيم، ودين نبيِّك ﷺ؛ فتحشر معهما؛ ولا تَصُدَّ عن الحقِّ، فتُصَدَّ عن الحوض يوم الدِّين، كما يُصَدُّ عنه من صَدَّ عن طريقهما.

ولعلَّك أن تمرَّ على الصِّراط يوم القيامة، ولا تزِل عنه، كما زلَّ عن صراطهما المستقيم في الدُّنيا مَن زلَّ، فعليك بإدامة دعاء الفاتحة، مع حضور قلب، وخوف، وتضرُّع».

الشرح

هذا نصح عظيم من الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحرص على نفع النَّاس، يُعالج الأخطاء والمخالفات من خلال معاني سورة الفاتحة، وعِبرها، ودروسها، والفاتحة مليئة بالدُّروس والعِبر؛ لأنَّها أمُّ القرآن؛ وقد حوت إجمالًا ما حواه القرآن تفصيلًا.

والمصيبة أنَّ أناسًا يقرؤون الفاتحة؛ لكنَّ أفعالهم مصادمة لما تدُلُّ عليه هذه السُّورة العظيمة من وجوب إخلاص الدِّين لله عَزَّ وَجَلَّ، وإفراده وحده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، والبُعْد عن الشِّرك كلِّه دقيقه وجليله.

يقرأ الفاتحة لكنَّه يستغيث بغير الله، ويطلب المدد من غير الله، ويذبح لغير الله، ويصرف أنواعًا من العبادة لغير الله؛ فأين هو من فاتحة الكتاب الَّتِي يقرؤها! بل إنَّها صارت حجَّة عليه لا له، والله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع آخرين.

فذاك الَّذِي يقرأ القرآن ويُصادم بفعاله ما جاء به القرآن لا يكون بهذه القراءة من أهل القرآن، ذكر لي أحد الأفاضل أنه سمع رجلًا يقول في سجوده مدد يا رسول الله، وقد قرأ في قيامه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

✍ **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فتأمَّل ما ذكرت لك ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة**».

تأمَّل وتدبَّر كلام الله، تأمَّل في هذه الآيات العظيمة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النِّساء:٨٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يحثُّ على التَّأمُّل والتَّدبُّر في معاني آي القرآن الكريم، ولا سيَّما هذه السُّورة العظيمة.

ثم هو في هذا المقام يُنبِّه على باب لطيف في فهم الحقائق الشَّرعيَّة، ومكانتها العظيمة، ومنزلتها الرَّفيعة؛ فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**اعلم أرشدك الله أنَّ الحقَّ لا يتبيَّن إلَّا بالباطل؛ كما قيل: وبضدِّها تتبيَّن الأشياء**»، مثلًا: لو أردت أن تُبيِّن لابنك أهمِّيَّة الصِّحَّة ومكانة العافية، فأخذت تُحَدِّثه عن المرض وعن المرضى وعن أحوالهم ومعاناته وشدائدهم إلى آخر ذلك، فحديثك هذا عن المرض هو بحدِّ ذاته إظهار لحسن الصِّحَّة ومكانتها.

وعندما تريد أن تحدِّث إنسانًا عن نعمة نور المصباح الَّذِي يَرَى به الطَّريق، أو يقرأ كتابًا؛ فتحدَّث عن واقع الإنسان لو كان في ظلام بدون مصباح؛ كيف يقرأ؟ كيف يتحرَّك؟ فبضدِّها تتميَّز الأشياء.

فإذا أردنا أن نتحدَّث عن مكانة التَّوحيد العظيمة، وعظم الإخلاص، والمكانة الَّتِي يتبوَّؤها المخلص الَّذِي أفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، ولم يجعل مع

الله شريكًا، نقول: انظروا إلى حال التَّائهين، الضَّائعين، مشتَّتي القلوب، ممزَّقي الأفئدة؛ قلوبهم متعلِّقة بمخلوق: لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فضلًا أن يملك لغيره شيئًا، يفزعون إليه ويلجؤون، ويستغيثون به، وإذا ناب أحدهم حاجة التجأ إليه؛ مرَّة ينادي هذا، ومرَّة يناجي هذا، ومرَّة يلتجئ إلى ذاك؛ مشتَّت القلب، ممزَّق الفؤاد، اتَّخذ آلهة ومعبودات، يعيش حياة الضِّياع، وحياة النَّكد، حياة تجلب له الوهن تلو الوهن، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، رُوِي أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى رجلًا في يده حلقة من صفر فقال: «مَا هَذِهِ الْحَلْقَةُ؟» قال: هذه من الواهنة، قال: «انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»(١).

فالتَّعلُّقات الباطلة بغير الله لا يصل صاحبها من خلالها إلَّا إلى الوهن، والضَّعف، والهلاك الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ بل يعيش حياةً مظلمةً، بئيسةً، مِلؤها النَّكد، والهمُّ، والغمُّ، وتوالي الأحزان، ولا يزال صاحبها -والعياذ بالله- من تعلُّق باطل إلى آخر، في تنقُّلات بين أودية الشِّرك السَّحيقة المهلكة.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، شتَّان بين ذاك الَّذي قلبه ممزَّق، وبين مَن اجتمع قلبه على الحقِّ: لا يدعو إلَّا الله، ولا يلجأ إلَّا إلى الله، ولا يخاف إلَّا من الله، ولا يفزع ولا يفرُّ إلَّا إلى الله، ولا يذبح ولا ينذر إلَّا لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، يعلم أنَّ الأمر كلَّه بيد الله، وأنَّ الله

(١) رواه أحمد (٢٠٠٠٠)، وابن ماجه (٣٥٣١)، عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وضعَّفه الألبانيُّ في السِّلسلة الضَّعيفة (١٠٢٩).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مالك يوم الدِّين، ومالك الخلق أجمعين، وهو المُتَصَرِّف المُدَبِّر، المعطي المانع، الخافض الرَّافع؛ فلا يلجأ إلَّا إليه.

هذا النَّظر يُكسب الإنسان معرفة بمكانة التَّوحيد، ومنزلته العظيمة، كما أنَّ الإنسان إذا رأى المرضى أدرك الصِّحَّة الَّتِي يعيشها، وأنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بها؛ فالضِّدُّ يظهر حُسنه الضِّدُّ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فتأمَّل ما ذكرت لك ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة؛ لعلَّك أن تعرف ملَّة أبيك إبراهيم، ودين نبيِّك ﷺ»**.

كان من هدي نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يقول في كلِّ صباح: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(١). وهذا ذكر مبارك يُنصح كلُّ مسلم أن يقوله كلَّ صباح؛ خاصَّة في زمانِ تلاطم الفتن، وكثرة الشُّبهات.

فتأمَّل في هذه المعاني والدَّلالات، وحقِّق التَّوحيد، وأخلص الدِّين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لعلَّك أن تعرف ملَّة أبيك إبراهيم، ودين نبيِّك ﷺ فتحشر معهما»**، نسأل الله أن نُحشر مع إبراهيم ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ولا تَصُدَّ عن الحقِّ»** الصُّدود: الإعراض، إذا تليت عليك الآيات من كلام الله، والأحاديث البيِّنات من كلام رسول الله ﷺ، لا تعرض

---

(١) رواه أحمد (١٥٣٦٠)، والنَّسائِيُّ في الكبرى (٩٧٤٥)، عن عبد الرَّحمن بن أبزى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٤٦٧٤).

عنها؛ «فتُصَدَّ عن الحوض» أي: الحوض المورود يوم القيامة؛ لأنَّ أناسًا يُذادون يوم القيامة عن الحوض، فيقول النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[(١)].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ورود النَّاس الحوض، وشربهم منه يوم العطش الأكبر بحسب ورودهم سُنَّة رسول الله ﷺ وشربهم منها، فمَن وردها في هذه الدَّار وشرب منها وتضلَّع؛ ورد هناك حوضه وشرب منه وتضلَّع، فله ﷺ حوضان عظيمان: حوض في الدُّنيا، وهو سُنَّته، وما جاء به، وحوض في الآخرة، فالشَّاربون من هذا الحوض في الدُّنيا هم الشَّاربون من حوضه يوم القيامة؛ فشارب ومحروم، ومستقلٌّ ومستكثرٌ، والَّذِين يذودهم هو والملائكة عن حوضه يوم القيامة هم الَّذِين كانوا يذودون أنفسهم وأتباعهم عن سُنَّته، ويؤثرون عليها غيرها؛ فمَن ظمأ من سُنَّته في هذه الدُّنيا ولم يكن له منها شرب؛ فهو في الآخرة أشدُّ ظمأ وأحرُّ كبدًا»[(٢)].

فليحذر الإنسان الصُّدود عن الحقِّ؛ لا ينفعه أن يقول هكذا وجدت آبائي، أو هكذا علَّمني شيوخي، وما يدريه لعلَّهم شيوخ ضلال؛ قولهم يُصادم القرآن وأحاديث الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن أعجب ما يكون في هذه الدُّنيا أنَّ أناسًا يزعمون أنَّ أصحاب النَّبيِّ ﷺ -خيرَ الأمم- هم الَّذِين يُصَدُّون عن الحوض؛ يزعمون ذلك، وهم مُتَلوِّثون بالشِّرك -اعتداء قبيح مشين على خيار الأمم- وفي الوقت نفسه لا يُدرك هؤلاء

(١) رواه البخاريُّ (٤٦٢٥)، عن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) اجتماع الجيوش الإسلاميَّة لابن القيِّم (٢/ ٨٥-٨٦).

الهلكة الَّتِي يعيشونها، والضَّياع الَّذِي يمارسونه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كما يُصَدُّ عنه مَن صَدَّ عن طريقهما**» أي: طريق نبيِّنا محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والحنيفيَّة ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

✍ **قال** ثمَّ يُذكِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمرور على الصِّراط فيقول: «**ولعلَّك أن تمرَّ على الصِّراط يوم القيامة، ولا تزِل عنه**».

وهو صراط يُنصب يوم القيامة على متن جهنَّم؛ وُصِف في الحديث بأنَّه «**أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**»(١)، ولا طريق إلى الجنة إلَّا من فوق هذا الصِّراط؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، جعلنا الله منهم، ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢] المرور مُتيقَّن، لكنَّ النَّجاة ما ثمَّ إلَّا أن يلطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولا تزِل عنه، كما زلَّ عن صراطهما المستقيم في الدُّنيا مَن زلَّ**».

أي: صراط إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونبيِّنا محمَّد ﷺ، فمَن زلَّ عنه زلَّ عن الصِّراط الَّذِي يُنصب على متن جهنَّم يوم القيامة، ومَن سار على هذا الصِّراط المستقيم في الدُّنيا؛ وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ للسَّير على الصِّراط المستقيم المنصوب على متن جهنَّم يوم القيامة.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصِّراط الَّذِي نصبه الله لعباده في هذه الدَّار يكون ثبوت قدمه على الصِّراط المنصوب

---

(١) رواه ابن حِبَّان (٧٣٧٧)، عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ...**»، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٠٥٤).

على متن جهنَّم، وعلى قدر سيره على هذه الصِّراط يكون سيره على ذاك الصِّراط»[١] بل إنَّ عبور النَّاس على ذلك الصِّراط يتفاوت بحسب قُوَّة سيرهم في هذه الحياة الدُّنيا على الصِّراط المستقيم؛ صراط نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والنَّبيِّين؛ ولهذا «**يَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[٢]، عياذًا بالله من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فعليك بإدامة دعاء الفاتحة مع حضور قلب وخوف وتضرُّع**».

دعاء الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، أدم هذا الدُّعاء، واستحضر كلَّ مرَّة تقرأ الفاتحة أنَّك تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الدَّعوة العظيمة، وهذا من أسباب قبول الدُّعاء، «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[٣]، إنَّما يستجيب من قلب مقبل، متضرِّع، خائف، يرجو النَّجاة، ويخاف من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٣٣).
(٢) رواه البخاريُّ (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٥٩٤).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فالعبادة كمال المحبَّة، وكمال الخضوع والخوف والذُّلِّ.

وقُدِّم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكُرِّر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نتوكَّل إلَّا عليك، وهذا هو كمال الطَّاعة.

والدِّين كلُّه يرجع إلى هذين المعنيين: فالأوَّل: التَّبرؤ من الشِّرك، والثَّاني: التَّبرؤ من الحول والقُوَّة.

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: إيَّاك نُوَحِّد، ومعناه: أنَّك تعاهد ربَّك أن لا تشرك به في عبادته أحدًا، لا ملكًا، ولا نبيًّا، ولا غيرَهما، كما قال للصَّحابة: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠].

فتأمَّل هذه الآية، واعرف ما ذكرت لك في الرُّبوبيَّة، أنَّها الَّتي نسبت إلى «تاج» و«محمَّد بن شمسان»، فإذا كان الصَّحابة لو يفعلونها مع الرَّسل كفروا بعد إسلامهم؛ فكيف بمَن فعلها في تاج، وأمثاله؟

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هذا فيه أمران: أحدهما سؤال الله سبحانه الإعانة، وهو التَّوكُّل، والتَّبرِّي من الحول والقُوَّة، وأيضًا: طلب الإعانة من الله كما مرَّ أنَّها من نصف العبد».

الشَّرح

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فالعبادة كمال المحبَّة، وكمال الخضوع، والخوف والذُّلِّ».

هذا تعريف للعبادة بمدلولها الشَّرعيِّ؛ فعبادة الله عَزَّوَجَلَّ كمال حبٍّ لله مع كمال الذُّلِّ والخضوع والتَّعظيم له سبحانه، والخوف منه، فهذه هي العبادة: حبٌّ لله، وخوف منه، وذُلٌّ بين يديه عَزَّوَجَلَّ.

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقُدِّم المفعول وهو إيَّاك».

يُنبِّه الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على فائدة ثمينة وهي: أنَّه قُدِّم المفعول وهو إيَّاك من أجل الحصر ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وهو في قُوَّة «نعبدك ولا نعبد غيرك»، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: نستعين بك ولا نستعين بغيرك.

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكُرِّر للاهتمام».

أي: قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ولم يقل: إيَّاك نعبد ونستعين، وإنَّما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ اهتمامًا بمقام الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحصر أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نتوكَّل إلَّا عليك».

هذا معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك؛ «وهذا هو كمال الطَّاعة؛ والدِّين كلُّه يرجع إلى هذين المعنيين» أي: إلى ما دلَّ عليه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، «حتَّى قيل أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن وجمع معاني القرآن في المفصل وجمع معاني المفصل في الفاتحة ومعاني الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[١].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٧٤).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والدِّين كلُّه يرجع إلى هذين المعنيين**».

لأنَّ الغاية الَّتِي خُلقنا لأجلها هي عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد جاءت في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ثمَّ تَحقُّق هذه الغاية لا بُدَّ له من وسيلة لا تتحقَّق هذه الغاية إلَّا بها وقد جاءت في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فإذًا لا قيام للدِّين إلَّا بهما؛ إخلاص العبادة لله، وإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده بالاستعانة ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فالأوَّل** ـ أي: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ـ **التَّبرؤ من الشِّرك، والثَّاني** ـ أي: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ـ **التَّبرؤ من الحول والقُوَّة**».

وهذه فائدة ثمينة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فيها التَّبرؤ من الشِّرك؛ أي: نعبدك ولا نعبد غيرك، فهل شخص يتلو ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ثمَّ بعدها بقليل يمُدُّ يديه ويقول: مدد يا فلان، أدركني يا فلان، أنا عائذ بك يا فلان، إن لم تأخذ بيدي مَن الَّذِي يأخذ بيدي؛ هل حقَّق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ الَّتِي هي البراءة من الشِّرك؟! لا، والله.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: إيَّاك نُوحِّد، ومعناه: أنَّك تعاهد ربَّك أن لا تشرك به في عبادته أحدًا، لا ملكًا، ولا نبيًّا، ولا غيرَهما**».

هذا عهد بينك وبين الله، وعهد مُتكَرِّر في اليوم واللَّيلة فرضا، سبع عشرة مرَّة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فأين ذاك من هذا العهد، يُعاهد الله، ثمَّ يستغيث بغير الله: مدد يا فلان؛ أين هو من هذا العهد الَّذِي يُعاهد الله عَزَّوَجَلَّ عليه!! فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ براءة من الشِّرك؛ وتحقيق للا إله إلَّا الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ براءة من الحول والقُوَّة وتحقيق للا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله؛ لأنَّ لا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله كلمة استعانة، إذا نادى المنادي للصَّلاة: حيَّ على الصَّلاة... حيَّ على الفلاح...

تطلب من الله أن يُعينك فتقول: لا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله.

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأوَّلها وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: معاهدة منك لربِّك عزَّ وجلَّ أنَّك لا تشرك بعبادته أحدًا، لا ملكا مُقَرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، ولا غيرهما، وآخرها وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: سؤال منك لمولاك سبحانه أن يعينك على أمور دينك ودنياك، ولا يكلك إلى نفسك، ولا إلى أحد من خلقه، وإخبار منك أنَّك لا تستعين إلَّا به تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(١).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كما قال للصَّحابة: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾** [آل عمران: ٨٠]».

ذكر أهل العلم في كتب التَّفسير -ومنهم ابن كثير(٢) -: أنَّ هذه الآيات نزلت لما أخذ النَّبيُّ ﷺ يدعو إلى التَّوحيد؛ فقال نفرٌ من أهل الكتاب: أتريد يا محمَّد أن نعبدك كما تعبد النَّصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ أَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرَ اللهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي**»، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فالنَّبيُّ ﷺ لا يدعو إلى أن يُعبد، ولا يدعو إلَّا لعبادة الله الواحد القهَّار، كلُّ دعوته دعوة لإفراد الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، وإخلاص الدِّين لله.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فتأمَّل هذه الآية واعرف ما ذكرت لك في الرُّبوبيَّة، أنَّها الَّتي نسبت إلى «تاج» و«محمَّد بن شمسان»**».

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦).

شخصان في ذلك الزَّمان، كان النَّاس يتواردون على التَّعلُّق بهما، وعبادتهما، والذَّبح لهما، وغير ذلك من العبادات؛ فـ «تاج» من أهل الخرج، كانت تُصْرَف له النُّذور، ويُدْعَى، ويعتقد فيه النَّفع والضَّرُّ، و«شمسان» كان هو وأولاده يأمرون النَّاس أن ينذروا لهم، ويدعون النَّاس إلى عبادتهم من دون الله.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإذا كان الصَّحابة لو يفعلونها مع الرُّسل كفروا بعد إسلامهم**».

أخذها من الآية: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠]، أي: اتِّخاذ النَّبيِّين أربابا كفر بعد الإسلام فلا يأمر به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يرضاه؛ بل دعوته كلُّها في محاربته، ولو فعل ذلك الصحابة مع الرسل لكفروا بعد إسلامهم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فكيف بمَن فعلها في تاج وأمثاله؟**».

يتَّخذونهم أربابًا بالعبادة والدُّعاء والذَّبح والنَّذر إلى غير ذلك، وهذه أشياء موجودة حتَّى زماننا هذا؛ أحد الأشخاص حدَّثني عن واقعِهِ هو وأهل بلده في يوم من السَّنة، قال: نذهب إلى قبر -وسمَّى شخصًا في بلده يُزعم أنَّه وليٌّ من الأولياء- نجتمع عند قبره ونذبح له؛ قال: وأنت الآن تحدِّثنا عن التَّوحيد؛ فهل هذه الأشياء تخالف التَّوحيد؟ هذا كان سؤاله، فليتأمَّل العاقل ماذا صنع أئمَّة الضَّلال بهؤلاء، يذكرون لهم أحاديث موضوعة وقصصا ملفقة حتَّى يوقعونهم في مثل هذه التَّعلُّقات، وتلك الأباطيل الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان؛ فيظنُّون أنَّ أفعالهم هذه لا تناقض التَّوحيد.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا فيه أمران: أحدهما: سؤال الله سبحانه الإعانة، وهو التَّوكُّل والتَّبرِّي من الحول والقُوَّة، وأيضًا: طلب الإعانة من الله**».

الفائدة الأولى: التَّبرؤ من الحول والقُوَّة بقولك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فلا حول لك ولا قُوَّة؛ بل ليس إلَّا عوْن الله لك.

الفائدة الثَّانية: طلب العوْن من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كما مرَّ أنَّها من نصف العبد**».

لأنَّ هذه آية واحدة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ مقسومة بين الرَّبِّ والعبد: أوَّلها للرَّبِّ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وآخرها للعبد: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلب من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يُعينك لما خلقك لأجله، وأوجدك لتحقيقه.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، فهذا هو الدُّعاء الصَّريح، الَّذِي هو حظُّ العبد من الله، وهو التَّضرُّع إليه، والإلحاح عليه أن يرزقه هذا المطلب العظيم، الَّذِي لم يُعط أحد في الدُّنيا والآخرة أفضل منه، كما منَّ الله على رسوله ﷺ بعد الفتح بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢]، والهداية ها هنا: التَّوفيق والإرشاد.

وليتأمَّل العبد ضرورته إلى هذه المسألة؛ فإنَّ الهداية إلى ذلك تتضمَّن: العلم النَّافع، والعمل الصَّالح، على وجه الاستقامة والكمال، والثَّبات على ذلك إلى أن يلقى الله».

الشَّرح

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ فهذا هو الدُّعاء الصَّريح الَّذِي هو حظُّ العبد من الله، وهو التَّضرُّع إليه، والإلحاح عليه أن يرزقه هذا المطلب العظيم ».

وهو دعاء مستجاب؛ لأنَّ الله قال: «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[١]، بل هو أفضل الدُّعاء على الإطلاق؛ أن يهديك الله الصِّراط المستقيم، «الَّذِي لم يُعط أحد في الدُّنيا والآخرة أفضل منه»، فهو أفضل مطلب، وأعظم مقصد.

«كما منَّ الله على رسوله ﷺ بعد الفتح بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾»

والهداية هي أن يُوفِّقك الله، ولا يخذلك ولا يكلك إلى نفسك، وتكون مسدَّدًا مُمدًّا بعوْن الله: في عبادته، وطاعته، والبعد عمَّا نهاك عنه؛ ومن الدُّعاء المأثور:

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

«**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»(١)، «**والهداية ها هنا التَّوفيق والإرشاد**» أي: هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبده لسبيل الرَّشاد، وجعله من أهله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فليتأمَّل العبد ضرورته إلى هذه المسألة، فإنَّ الهداية إلى ذلك تتضمَّن العلم النَّافع والعمل الصَّالح، على وجه الاستقامة والكمال والثَّبات على ذلك إلى أن يلقى الله**».

سؤال الله الهداية إلى الصِّراط المستقيم يتضمَّن معاني كثيرة، أشار الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليها؛ فعندما تقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ **هذا يتضمَّن:**

- أنَّك تسأل الله أن يُعَلِّمك العلم النَّافع؛ الَّذِي تهتدي به إلى الصِّراط المستقيم.
- وأن يمنَّ عليك بالتَّوفيق للعمل الصَّالح؛ لأنَّ من النَّاس مَن يعلم ولا يعمل.
- وأن يُثبِّتك على ذلك، وأن يزيدك من معاني الإيمان وحقائق الدِّين.
- وأن يجنِّبك الفتن والأمور الَّتِي تصرفك عن الصِّراط المستقيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان أنفع الدُّعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧]؛ فإنَّه إذا هداه هذا الصِّراط: أعانه على طاعته

(١) رواه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠) عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣٣٨٤).

وترك معصيته، فلم يصبه شرٌّ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو أفضل دعاء دعا به العبد ربَّه، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربَّه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربَّه؛ فإنَّه يجمع مصالح الدِّين والدُّنيا والآخرة، والعبد دائمًا محتاج إليه، لا يقوم غيره مقامه»[٢].

وقال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الدُّعاء جامع لخيري الدُّنيا والآخرة: أمَّا جمعه لخير الآخرة فواضح.

وأمَّا جمعه لخير الدُّنيا؛ فلأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، والإيمان والتَّقوى هو الصِّراط المستقيم، فقد أخبر أنَّ ذلك سبب لفتح بركات السَّماء والأرض، هذا في الرِّزق، وأمَّا في النَّصر، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فأخبر الله أنَّ العِزَّة تحصل بالإيمان وهو الصِّراط المستقيم، فإذا حصل العِزُّ والنَّصر، وحصل فتح بركات السَّماء والأرض، فهذا خير الدُّنيا، والله أعلم»[٣].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٤/ ٣٢٠).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٧/ ١٣٢).
(٣) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٦-٧٧).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصِّراط: الطَّريق الواضح، والمستقيم: الَّذِي لا عوج فيه، والمراد بذلك: الدِّين الَّذِي أنزله الله على رسوله ﷺ، وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وأنت دائمًا في كُلِّ ركعة، تسأل الله أن يهديك إلى طريقهم.

وعليك من الفرائض أن تُصَدِّق الله أنَّه هو المستقيم، وكلُّ ما خالفه من طريق أو علم أو عبادة، فليس بمستقيم، بل معوج؛ وهذه أوَّل الواجبات من هذه الآية، وهو اعتقاد ذلك بالقلب.

وليحذر المؤمن من خدع الشَّيطان، وهو اعتقاد ذلك مجملًا، وتركه مُفَصَّلًا، فإنَّ أكثر النَّاس من المرتدين يعتقدون أنَّ رسول الله ﷺ على الحقِّ، وأنَّ ما خالفه باطل، فإذا جاء بما لا تهوى أنفسهم، فكما قال تعالى: ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠].

الشرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصِّراط: الطَّريق الواضح، والمستقيم: الَّذِي لا عوج فيه، والمراد بذلك الدِّين الَّذِي أنزله الله على رسوله ﷺ».

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثمَّ قال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثمَّ قال: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى

كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»(١).

وعن النَّوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(٢).

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**والمراد بذلك الدِّين الَّذِي أنزله الله على رسوله ﷺ وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾**».

قال: الصِّراط هو الدِّين؛ مثل ما في الحديث المُتَقَدِّم قال: «وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ»؛ فالصِّراط هو دين الله الَّذِي رضيه لعباده، ولا يرضى لهم دينًا سواه.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾**».

عندما تدعو بهذه الدَّعوة تقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، تسأل الله أن يهديك إلى هذا الصِّراط المستقيم الَّذِي هو دين الله، دين الَّذِين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، وحسُن أولئك رفيقًا.

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُٱللَّهُ: «تسأله تعالى أن يهديك إلى

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في المشكاة (١٦٦).
(٢) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ في المشكاة (٣٨٨٧).

طريق الجنَّة، الَّذِي لا اعوجاج فيه، الَّذِي نصبه طريقًا إليها، لا طريق لها إلَّا هو، وهو التَّوحيد والبراءة من الشِّرك وتوابعه، وذلك مع أداء الفرائض وترك المحارم»[١].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وهم رسول الله ﷺ وأصحابه».**

ولهذا قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما تلا قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]: «فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا؛ فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا»[٢].

وسُئِل ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن الصِّراط المستقيم ما هو فقال: «تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الْجَنَّةِ»[٣].

فالصِّراط المستقيم هو الدِّين الَّذِي ترك أُمَّته عليه؛ كما قال ﷺ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[٤].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأنت دائمًا في كُلِّ ركعة تسأل الله أن يهديك إلى طريقهم».**

أي: طريق النَّبِيِّ ﷺ، وطريق الصَّحابة، في كُلِّ ركعة تدعو الله بهذا تقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

---

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٦).
(٢) الاعتصام للشَّاطبيِّ (١/ ٦٥).
(٣) البدع لابن وضاح (٢/ ٧١).
(٤) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وابن ماجه (٤٣) عن العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٤٣٦٩).

تبيَّن أنَّ الطَّريق الَّذِي طلبت من مولاك أن يهديك إليه، هو طريق النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه، الجامع لمعرفة الحقِّ والعمل به»(١).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وعليك من الفرائض أن تُصَدِّق الله أنَّه هو المستقيم»**.

فرضٌ عليك أيُّها المسلم أن تُصَدِّق الله أنَّ طريق النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه هو الطريق المستقيم، وإذا كان طريقهم هو المستقيم فالطُّرق الأخرى الَّتِي نشأت والمخالفات الَّتِي جاءت فيما بعد ووجدت كلُّها من السُّبُل الَّتِي على كُلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه؛ فكُلُّ ما خالف الصِّراط من علم أو عمل فليس بمستقيم، هذا ميزان وقسطاس قويم؛ متى ما كان معك هذا الميزان -بإذن الله- فلن تضلَّ.

فلو دعاك شخص إلى عمل أو ذكر، أو عبادة؛ فأوَّل ما تسأله: هل عليه دليل من فعل النَّبِيِّ ﷺ أو الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أم لا؟

فإن قال لك: عندي رؤيا مناميَّة مثل فلق الصُّبح -ما عنده لا آية ولا حديث- أو قال عندي قصَّة مُؤَثِّرة، أو جَرَّبنا، أو جَرَّب غيرنا، وغير ذلك من الأشياء الَّتِي يدَّعون أنَّها أدلَّة يستدلُّون بها؛ فلو قبلت ذلك؛ فأنت لم تفهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ولم تُحَقِّق العمل بها.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وعليك من الفرائض أن تُصَدِّق الله أنَّه هو المستقيم، وكلُّ ما خالفه من طريق أو علم أو عبادة، فليس بمستقيم، بل معوج؛ وهذه أوَّل الواجبات من هذه الآية»**.

أوَّل ما يجب عليك من هذه الآية أن تعتقد أنَّ الصِّراط المستقيم هو

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٦).

الَّذِي كان عليه النَّبِيُّ ﷺ وأصحابه، وكلُّ ما خالفه معوجٌّ؛ مهما قال عنه أربابه وأصحابه، «**وهو اعتقاد ذلك بالقلب**» وتعتقد بقلبك ذلك.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وليحذر المؤمن من خدع الشَّيطان»**.

فالشَّيطان له خُدع، وله مصائد، وله حبائل، وقد ألف ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا نفيسًا في هذا الباب سمَّاه: «إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان» ومصائد الشَّيطان هي: خُدع الشَّيطان؛ يضعها للنَّاس في طريقهم حتَّى يُبعدهم عن الصِّراط، وفي الدُّعاء: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وشَرَكِهِ**»[1]، أي: مصائده وحبائله الَّتِي يضعها حتَّى يُبعد النَّاس عن صراط الله المستقيم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وهو اعتقاد ذلك مجملًا وتركه مُفصَّلًا»**.

يقول الشَّيطان لمَن يُغوي: يكفيك أن تعتقد إجمالًا أنَّ الصِّراط المستقيم هو الَّذِي كان عليه النَّبِيُّ ﷺ، أمَّا التَّفاصيل اعمل ما شئت؛ المهمُّ اعتقد إجمالًا أنَّ هدي النَّبِيِّ ﷺ هو الحقُّ وهو الهُدَى.

ولهذا تجد في النَّاس مَن يقول: إنَّ هدي النَّبِيِّ ﷺ خير الهدي؛ ولكنَّه لا يُصَلِّي؛ لا يقول هديه ﷺ باطل؛ بل يقول هدي النَّبِيِّ ﷺ خير الهدي، فإذا كنت تعتقد أنَّ هديه خير الهدي، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول عن الصَّلاة: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا؟ كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ،**

---

(١) رواه أحمد (٥١)، وأبو داود (٥٠٦٧) عن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٧٥٣)، قال النَّوويُّ في (الأذكار): «رُوِي على وجهين... بكسر الشِّين مع إسكان الرَّاء من الإشراك، والثَّاني: شَرَكه: بفتح الشِّين والرَّاء: حبائله ومصايده».

وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»[(١)]؛ فلا يكفي فقط أن يقول: هديه خير الهدي: ثمَّ يترك دينه، وطاعته، واتِّباعه؛ بل لا بُدَّ أن يُصدِّق ذلك العمل.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإنَّ أكثر النَّاس من المرتدِّين يعتقدون أنَّ رسول الله ﷺ على الحقِّ، وأنَّ ما خالفه باطل، فإذا جاء بما لا تهوى أنفسهم، فكما قال تعالى:** ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]».

فأيُّ شيء يأتيهم من أحاديث الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخالف أهواءهم يُكَذِّبون به، ولا يقبلونه؛ بل يسخرون منه ويستهزؤون، مع اعتقادهم أن رسول الله ﷺ على الحق وأن كلَّ ما خالفه باطل.

---

(١) رواه أحمد (٦٥٧٦)، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الألبانِيُّ في المشكاة (٥٧٨).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا قوله:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]. **فالمغضوب عليهم هم: العلماء الَّذِين لم يعملوا بعلمهم، والضَّالُّون: العاملون بلا علم، فالأوَّل: صفه اليهود، والثَّاني: صفة النَّصارى.**

وكثير من النَّاس إذا رأى في التَّفسير: أنَّ اليهود مغضوب عليهم، وأنَّ النَّصارى ضالُّون، ظنَّ الجاهل أنَّ ذلك مخصوص بهم، وهو يُقِرُّ أنَّ ربَّه فارض عليه أن يدعو بهذا الدُّعاء، ويتعوَّذ من طريق أهل هذه الصِّفات.

فيا سبحان الله! كيف يُعلِّمه الله، ويختار له، ويفرض عليه، أن يدعُوَ به دائمًا، مع أنَّه لا حذر عليه منه، ولا يتصوَّر أنَّه يفعله، هذا من ظنِّ السُّوء بالله. والله أعلم، هذا آخر الفاتحة.

وأمَّا «آمين» فليست من الفاتحة، ولكنَّها تأمين على الدُّعاء، معناها: اللَّهُمَّ استجب، فالواجب تعليم الجاهل، لئلَّا يظنُّ أنَّها من كلام الله؛ والله أعلم».

الشَّرح

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا قوله:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **فالمغضوب عليهم: هم العلماء الَّذِين لم يعملوا بعلمهم، والضَّالُّون: العاملون بلا علم**».

فالمنعم عليه: هو الَّذِي جمع الله له بين العلم بالحقِّ، والعمل به؛ العلم النَّافع والعمل الصَّالح؛ فمَن علم الحقَّ ولم يعمل به غضب الله عليه، ومَن عبد الله بدون علم فهو ضالٌّ، وكلٌّ من هذين السَّبيلين يُتعوَّذ بالله منهما: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: أعذنا، وجنِّبنا، وسلِّمنا يا الله من هذين الطَّريقين: طريق

المغضوب عليهم الَّذِين يعلمون ولا يعملون، وطريق الضَّالِّين الَّذِين يعملون بلا علم.

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمغضوب عليهم، الَّذِين وهبهم الله الفهم فعرفوا الحقَّ من الباطل، لكن لم يعملوا، والضَّالُّون هم الَّذِين عملوا وطلبوا الطَّريق، لكن بجهل، فإذا سلم العبد من آفة الجهل، وصار من أهل المعرفة، ثمَّ سلم من آفة الفسق وعمل بما أمره الله به، صار من الَّذِين أنعم الله عليهم، من أهل الصِّراط المستقيم»[١].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«فالأوَّل: صفة اليهود».**

يعلمون ولا يعملون كما قال الله عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]. ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾عَلِموها و ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها، فغضب الله عليهم ولعنهم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«والضَّالُّون.. صفة النَّصارى».**

الَّذِين عبدوا الله بالبدع والأهواء والرَّهبانيَّة الَّتِي ابتدعوها ما كتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وكثير من النَّاس إذا رأى في التَّفسير أنَّ اليهود مغضوب عليهم، وأنَّ النَّصارى ضالُّون، ظنَّ الجاهل أنَّ ذلك مخصوص بهم».**

وقال: الأمر لا يعنينا، ما لنا علاقة بهذا؛ لأنَّ المغضوب عليهم اليهود، والضَّالُّون النَّصارى، هكذا يظنُّ بعض الجُهَّال.

---

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٦).

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو يُقِرُّ أنَّ ربَّه فارض عليه أن يدعو بهذا الدُّعاء، ويتعوَّذ من طريق أهل هذه الصِّفات».

فرض الله عليه أن يدعوَ بهذا الدُّعاء ثمَّ يظُنُّ أنَّ هذا أمر لا علاقة له به، وأنَّه ليس من الممكن أن يقع فيه، أو يكون من أهله.

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيا سبحان الله! كيف يُعلِّمه الله، ويختار له، ويفرض عليه، أن يدعُوَ به دائمًا مع أنَّه لا حذر عليه منه».

أي: لا خوف عليه من أن يكون من المغضوب عليهم أو من الضَّالِّين.

✍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يتصوَّر أنَّه يفعله».

أي: لا يتصوَّر أنَّه يفعل ما عليه اليهود أو النَّصارى مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»[(١)].

قال سفيان بن عيينة من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصاري ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود.

لأن النصارى عبدوا بغير علم فمن فسد من العبّاد ففيه شبه منهم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه فمن فسد من العلماء ففيه شبه منهم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] فالأول من الغاوين والثاني من الضالين. فإن الغي اتباع الهوى والضلال عدم الهدى».

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«هذا من ظنِّ السُّوء بالله».**

لأنَّ هذا الفهم السَّيِّئ يجعل صاحبه يقرأ هذه الآيات ولا يُحقِّق العبوديَّة في الدُّعاء والطَّلب والسُّؤال بأن يُجنِّبه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ طريق المغضوب عليهم وطريق الضَّالِّين؛ لأنَّه في قرارة نفسه يظنُّ أنَّ هذا أمر لا علاقة له به، وإنَّما هو شيء يخصُّ اليهود والنَّصارى، ولا يكون في غيرهم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«هذا آخر الفاتحة، وأمَّا (آمين) فليست من الفاتحة، ولكنَّها تأمين على الدُّعاء، معناها: اللَّهُمَّ استجب، فالواجب تعليم الجاهل لئلَّا يظنَّ أنَّها من كلام الله».**

يُعلَّم الجاهل أنَّ آمين ليست من الفاتحة؛ وليست من كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وإنَّما هي تأمين، وقد جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ**: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] **فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[١] وهذا يدُلُّ على فضل التَّأمين، وعظيم أثره، وأنَّ المسلم ينبغي أن يعتنيَ به؛ لكنَّه ليس من الفاتحة.

(١) رواه البخاريُّ (٧٨٢) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه مسائل مستنبطة من سورة الفاتحة:

الأولى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها التَّوحيد.

الثَّانية: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فيها المتابعة.

الثَّالثة: أركان الدِّين: الحبُّ، والرَّجاء، والخوف؛ فالحبُّ في الأولى، والرَّجاء في الثَّانية، والخوف في الثَّالثة.

الرَّابعة: هلاك الأكثر في الجهل بالآية الأولى، أعني: استغراق الحمد، واستغراق ربوبيَّة العالمين.

الخامسة: أوَّل المنعَم عليهم، وأوَّل المغضوب عليهم والضَّالِّين.

السَّادسة: ظهور الكرم والحمد في ذكر المنعَم عليهم.

السَّابعة: ظهور القدرة والمجد في ذكر المغضوب عليهم والضَّالِّين.

الثَّامنة: دعاء الفاتحة، مع قوله: لا يستجاب الدُّعاء من قلب غافل.

التَّاسعة: قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه حجَّة الإجماع.

العاشرة: ما في الجملة من هلاك الإنسان إذا وكِل إلى نفسه.

الحادية عشر: ما فيها من النَّصِّ على التَّوكُّل.

الثَّانية عشر: ما فيها من التَّنبيه على بطلان الشِّرك.

الثَّالثة عشر: التَّنبيه على بطلان البدع.

الرَّابعة عشر: آيات الفاتحة، كلُّ آية منها لو يعلمها الإنسان صار فقيهًا، وكلُّ آية أفرد معناها بالتَّصانيف، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم».

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأولى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها التَّوحيد**».

أي: توحيد الألوهيَّة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنَّ التَّوحيد لا يكون توحيدًا إلَّا بالنَّفي والإثبات، الَّذي فيه الحصر والقصر بحيث لا تكون العبادة إلَّا لله، ولا تكون الاستعانة إلَّا به، بأن يُفرد بذلك وأن يُخلص الدِّين له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو تحقيق (لا إله إلا الله)، ومعناها: نعبدك ولا نعبد غيرك؛ قُدِّم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل ﴿نَعْبُدُ﴾؛ وهذا يفيد الحصر والقصر، كإفادة (لا إله إلَّا الله) -بما فيها من نفي وإثبات- إخلاص العبوديَّة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وإذا كانت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيقًا لـ(لا إله إلَّا الله)؛ فإنَّ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحقيق لـ(لا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله)، وهي كلمة استعانة وتفويض والتجاء إلى الله، أي: نستعين بك ولا نستعين بغيرك.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذه غاية لأجلها خُلِق الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

وتقديم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من باب تقديم الغايات على الوسائل.

فالغاية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: نعبدك ولا نعبد غيرك، والوسيلة لتحقيق هذه الغاية

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا يمكن أن تقوم بالعبادة لله عَزَّوَجَلَّ مخلصًا له إلَّا إذا أعانك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ووفَّقك وهداك.

ولهذا أعظم الدُّعاء وأجلُّه طلب العون على مرضاة الله، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا أعانك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على مرضاته وُفِّقت لكُلِّ خير، وهُدِيت إلى كُلِّ فلاح، وسعادة في الدُّنيا والآخرة، والأمر لله، والتَّوفيق بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا حول للعبد، ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيميَّة -قدَّس الله روحه- يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرِّياء، و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء»(١).

لأنَّ الرِّياء يتنافى مع الإخلاص الَّذي تدلُّ عليه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فإذا حقَّقها العبد -مخلصًا دينه لله، لا يقوم بالعبادة إلَّا لأجل الله، وطلبًا لرضاه، وتقرُّبًا إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يريد بذلك دنيا، ولا رياء، ولا سمعة- انطرد من قلبه الرِّياء.

ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرِّياء، بتحقيق العبد لها، لا بمُجَرَّد القراءة؛ لأنَّ من النَّاس مَن يقرؤها ويقع فيما هو أعظم من الرِّياء، كم مَن يقرؤها ثمَّ إذا انتهى من القراءة مدَّ يديه وقال: مدد يا فلان، أغثنا يا فلان، أنا عائذ بك يا فلان، ما لي مَن ألوذ به سواك يا فلان، أو غير ذلك من الكلمات؛ يقولها بلسانه لكنَّه لا يُحَقِّقها، ولا يقوم بما تقتضيه من التَّوحيد والإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تطرد العجب والكبرياء إذا حقَّقها العبد؛ لأنَّك عندما تُحَقِّقها ترى أنَّه لا حول لك ولا قُوَّة إلَّا بالله، وأنَّ أمرك بيد الله، لا تملك

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٧٨).

لنفسك: عطاء ولا منعًا، ولا خفضًا ولا رفعًا، ولا غنى ولا فقرًا، ولا غير ذلك.

وفي ذلك تنبيه على أهمِّيَّة مداواة النَّفس من الرِّياء والكبرياء بهذه الآية، وهما أعظم وأخطر آفات القلوب.

وإذا ضممت إلى ذلك ما في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ من معالجة للنَّفس من غيٍّ وضلال؛ اجتمع لك الخير كلُّه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الثَّانية: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فيها المتابعة**».

أي: للرَّسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالسَّير على نهجه، وترسُّم خطاه؛ لأنَّ الصِّراط المستقيم الَّذي تسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يهديك إليه هو سبيله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يكون العبد من أهل الصِّراط المستقيم إلَّا باتِّباعه والسَّير على منهاجه القويم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشُّورى:٥٢-٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقول المسلم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فيه سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقه للاتِّباع والسَّير على منهاج النَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يليق به أن يذهب بعد ذلك إلى فعل البدع الَّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وليذكِّر نفسه إذا دعته إلى فعل أمر محدث بهذه الدَّعوة الَّتي يدعو بها تكرارًا.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الثَّالثة: أركان الدِّين: الحبُّ، والرَّجاء، والخوف**».

هذه الثَّلاثة العظيمة سمَّاها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أركان الدِّين، وتُسَمَّى أيضًا: أركانَ التَّعبُّد

القلبيَّة، أي: أنَّ كُلَّ عبادة تتقرَّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها من صلاة أو صيام أو حجٍّ أو زكاة، أو غير ذلك لا بُدَّ أن تكون قائمة على هذه الأركان الثَّلاثة؛ فتُؤَدِّيها حبًّا لله، وخوفًا من عقابه، ورجاء لثوابه، وقد جُمِعت في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء:٥٧].

وتُسَمَّى أيضًا: مُحَرِّكات القلوب[١]؛ لأنَّها تحرك القلب لكل خير وإذا قامت في قلب العبد اجتمع له الخير كلُّه، وسعد في دنياه وأخراه.

وتشبَّه بالطَّائر: فالحبُّ رأسه، والرَّجاء والخوف جناحاه، ولا يتمكَّن العبد من السَّير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا بها.

وقد اجتمعت هذه الأركان الثَّلاثة في سورة الفاتحة: الحبُّ في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والرَّجاء في قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، والخوف في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ فعندما تقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تحمد الله على أسمائه وصفاته وعظمته، وعلى نعمه الَّتِي لا تُعدُّ ولا تحصى، وآلائه وأفضاله عَزَّوَجَلَّ، فيتحرَّك في قلبك حبُّ الله، بل قالوا: إنَّ الحمد حقيقته: الثَّناء مع الحُبِّ، وأنَّه لا يكون حمدًا إلَّا عن حبٍّ، أمَّا إذا كان بدون حبٍّ يُسَمَّى مدحًا، ولا يُسَمَّى حمدًا.

فإذا قرأت: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وتدبَّرت في معنى هذين الاسمين ودلالتهما على رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحرَّك في قلبك الرَّجاء؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميَّة (١/ ٩٥).

فإذا انتقلت إلى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ -والدِّين: هو الجزاء والحساب- وتذكَّرت الحساب، والجزاء، والعقاب، والوقوف بين يدي الله، ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، في ذلك اليوم الَّذي لا يملك أحد لأحد شيئًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، يتحرَّك في قلبك الخوف، «إذا عرفت أنَّه لا بُدَّ أن يدين النَّاس بأعمالهم خيرها وشرِّها: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧-٨]، وأفادك أيضًا أعظم الفوائد، وهي التَّوحيد، إذا عرفت أنَّ ذلك اليوم: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]»[(١)].

ثمَّ جاءت: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ الَّتي هي الغاية بعد أن أُرْسِيت أركانها فكأنَّك بهذا تقول: أعبدك يا الله بهذه الثَّلاث: الحبِّ، والرَّجاء، والخوف.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الرَّابعة: هلاك الأكثر في الجهل بالآية الأولى، أعني: استغراق الحمد**».

الآية الأولى، أي: قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و(**ال**) في الحمد للاستغراق، والاستغراق: هو الاستقصاء، أي: كلُّ الحمد لله وعلامة (**ال**) الَّتي للاستغراق أنَّه يصحُّ أن يحلَّ محلَّها (**كلُّ**) وما ماثلها، فمعنى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أي: كلُّ الحمد لله ربِّ العالمين سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، حمدًا له على ربوبيَّته، وألوهيَّته، وأسمائه وصفاته، ونعمه وآلائه، وقدرته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتدبيره.

(١) الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٥)، وهو من كلام الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجميع هذه الأنواع الَّتِي هي مجامع الحمد مجتمعة في سورة الفاتحة، فكم عند النَّاس في فهم هذا المعنى العظيم الَّذِي دلَّت عليه من القصور والتَّقصير؛ بل والانحراف والضَّلال.

فالحمد كلُّه لله حتَّى النِّعم الَّتِي تصلك بواسطة أشخاص تسبَّبُوا في وصول هذه النِّعم إليك؛ لأنَّ الله هو الَّذِي أقدرهم، وهو الَّذِي يسَّر لهم ذلك، وهو الَّذِي أعطاهم، وهو الَّذِي أكرمهم، وهو الَّذِي منَّ عليهم.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«واستغراق ربوبيَّة العالمين»**.

أي: أنَّ ربَّ العالمين هو الله وحده لا شريك له، لا ربَّ لهم سواه، وقد ضلَّ فيه أكثر الخلق، وهذا واضح لمَن تأمَّل في العقائد المنحرفة الضَّالَّة المبنية على التَّعلُّقات الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان.

وكلُّ ما يقع فيه العبد من قصور في اللُّجوء إلى الله والاستعانة به والتَّوكُّل عليه -فضلًا عمَّا هو أعظم من ذلك وأكبر- كلُّ ذلكم من ضعف الفهم لهذا المعنى الَّذِي يُشير إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أمَّا مَن حقَّق الإيمان بهذا الاستغراق، وأنَّ الله ربُّ العالمين خلقًا، وملكًا، وتصرُّفًا، وتدبيرًا، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مُعِزَّ لمَن أذلَّ، ولا مُذِلَّ لمَن أعزَّ، ولا باسط لما قبض، ولا قابض لما بسط، وأنَّ الأمر كلَّه بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ لجوءه وثقته وتوكُّله وتفويضه كلَّه سيكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل ستنطرد عنه الآفات العظيمة الَّتِي تصل إلى القلب، وتتسلَّل إلى النَّفس بناء على ضعف إيمان الشَّخص بهذا الاستغراق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الخامسة: أوَّل المنعَم عليهم وأوَّل المغضوب عليهم والضَّالِّين**».

وهذا تنبيه لطيف يُنبِّه عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستفاد من دلالات هذه السُّورة العظيمة المباركة؛ وهو العناية بأوَّل المنعم عليهم، حتَّى إذا سار السَّائر يعرف مَن هو تابع في هذا السَّير فلا يستوحش، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النِّساء:٦٩]، فأوَّل المنعم عليهم: أنبياء الله، والتَّابعون لهم بإحسان.

وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر: المغضوب عليهم والضَّالِّين، نجد أولهم أئمَّة الضَّلال، وأساطين الباطل، ممَّن أضَلُّوا أقوامهم، وحرفوهم عن سواء السَّبيل؛ ودعوهم إلى ما فيه غضب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وسخطه، وما فيه نيل العقوبة من الله عَزَّ وَجَلَّ.

فيُدرك العبد نعمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه بأن جعله سائرًا مسار أولئك الَّذين ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾، ويحمد الله أن نجَّاه من سبيل أولئك الهالكين، وطريق أولئك الضَّالِّين؛ ممَّن غضب الله عليهم وضَلُّوا عن سواء السَّبيل.

ولهذا قال بعض السَّلف كسفيان بن عيينة وغيره: «مَن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النَّصارى»[(١)].

فمَن يعبد الله بغير علم ولا هدى؛ بل بالبدع والأهواء ففيه شبه من النَّصارى شاء أم أبى، ومَن لا يعمل بعلمه ففيه شبه من اليهود شاء أم أبى، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم لابن تيمِيَّة (١/ ٧٩).

«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»(١).

والنَّظر في هذه المسألة له ثمرة عظيمة وهي قُوَّة الاستمساك بهذا الطَّريق، وعدم المبالاة بكثرة الهالكين، أو المُفَرِّطين والمُضَيِّعين؛ ما دام أنَّه سالك سبيل الأنبياء والصَّحابة والأولياء والأصفياء من عباد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وهذا جانب مهمٌّ؛ لأنَّ أصحاب الباطل والضَّلال تجدهم يُحِيلُون إلى أئمَّة لهم، وأناس يقتدون بهم في هذا الطَّريق، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَإِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي أَئِمَّةً مُضِلِّينَ»(٢). إذًا جانب القدوات والأئمَّة له حظٌّ من النَّظر، وموضع اهتمام لدى كلِّ النَّاس، لكن منهم مَن لا يرضى لنفسه قدوة إلَّا الأنبياء وأتباع الأنبياء، وآخرون يتبعون كلَّ ناعق من دعاة الضَّلال وأئمَّة الباطل، فإذا قال قائل نريد أن نحتجَّ بالأئمَّة يقال: مَن هم الأئمَّة الَّذِين تُعَضُّ النَّواجذ على اتِّباعهم، ولزوم هديهم، والتَّمسُّك بما هم عليه؟!

قال الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويقال مَنْ أكبر الأئمَّة، ومعلوم أنَّه محمَّد، وإبراهيم، عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

فأمَّا إبراهيم، فكما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، لما جعله الله إمامًا، معلوم أنَّه في التَّوحيد، وما جرى عليه من قومه، أوقدوا له نارًا، إذا مرَّ الطَّير من فوقها سقط فيها.

ومحمَّد ﷺ فأيُّ شيء هو مرسل به؟ دعوة الصَّالحين، هو مرسل بهدمها أو

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٥٢)، عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (١٥٨٢).

يقيمها؟ أو هو ساكت عنها؟ لا قال شينة، ولا زينة؟! ومعلوم أنَّه ما تفارق هو وقومه إلَّا عندها»[١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«السَّادسة: ظهور الكرم والحمد في ذكر المنعَم عليهم».**

أي: كرم الله ومنُّه حيث تفضَّل عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالهداية للدِّين، وسلوك سبيل المنعم عليهم نعمة عظيمة تستوجب حمد المنعم؛ بل هي أعظم النِّعم وأكبر المنن، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٧-٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«السَّابعة: ظهور القدرة والمجد في ذكر المغضوب عليهم والضَّالِّين».**

ظهور قدرة الله ومجده، في أنَّ الأمر كلَّه لله، وأنَّ الهداية وضدَّها بيد الله، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، والمجد هو: السّعة، والمجيد اسم من أسماء الله دالٌّ على سعة قدرة الله، وسعة علمه، وسعة حكمته، وسعة تدبيره، وأنَّ الأمر كلَّه بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الظُّهور يجعل العبد يلجأ إلى الله دائمًا أن يعيذه من الضَّلال؛ لأنَّه لا يمكن أن تعاذ من الضَّلال وتنجو من طريق المغضوب عليهم إلَّا إذا أعاذك الله ونجَّاك، ولهذا كان أكثر دعاء نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي**

(١) الدُّرر السَّنيَّة (٢/ ٧٨).

عَلَى دِينِكَ»(١).

وجاء في دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ، أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(٣). والتَّعوُّذ بالله من الضَّلال جاء في أدعية كثيرة مأثورة عن النَّبِيِّ -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الثَّامنة: دعاء الفاتحة**».

أي: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِذَا قَالَ**: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(٤). فهذا الدُّعاء يحتاج عوامُّ المسلمين أن يُنَبَّهوا له؛ لأنَّ من العوامِّ مَن يقرأ الفاتحة عُمُرًا مديدًا ولا يستشعر أنَّه دعاء.

وجاء هذا الدُّعاء بعد وسيلتين عظيمتين هما من أعظم الوسائل لنيل المقصود:

الوسيلة الأولى: الثَّناء على الله وحمده وتمجيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك في قوله:

---

(١) رواه أحمد (١٢١٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢١٤٠)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٤٨٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٧)، عن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، عن أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحَّحه الألبانيُّ في المشكاة (٢٤٤٢).

(٤) رواه مسلم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].

والوسيلة الثَّانية: العبوديَّة والخضوع والذُّلُّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعين بك ولا نستعين بغيرك؛ فإنَّ ممَّا يُتَوَسَّل إلى الله به العبوديَّة لله، كما كان ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ**»(١).

وهذا الدُّعاء موعود عليه بالإجابة، لعموم الأدلَّة في أنَّ الله يجيب دعاء مَن دعاه مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وللحديث القُدُسيِّ: «**هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(٢). فهذا وعد بالإجابة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مع قوله: لا يستجاب الدُّعاء من قلب غافل**».

هذا تنبيه عظيم، أي: هذا دعاء مستجاب؛ لكن بشرطه وهو قول النَّبيِّ ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»(٣). إذًا لا بُدَّ أن يدعو العبد وهو مستيقن بالإجابة وألَّا يكون قلبه غافلًا لاهيًا، ولا مُعرضًا صادًّا؛ بل يكون حاضر القلب مستشعرًا وهو يتلو الفاتحة أنَّه يدعو الله؛ لأنَّ هذا من موجبات القبول.

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٤٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٥٩٤).

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**التَّاسعة: قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه حجَّة الإجماع**».

كقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: ١١٥].

وخاصَّة إجماع الصَّحابة؛ لأنَّ الصَّحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ يدخلون دخولًا أوليًّا في المنعم عليهم؛ بل هم صدر هذه الأُمَّة وخيارها، قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويقول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»(١).

هذا الملحظ جعل بعض المُفَسِّرين يقول: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أبو بكر وعمر(٢)؛ لأنَّ أبا بكر وعمر هما خيار المنعم عليهم من هذه الأُمَّة، كما تدُلُّ هذه الآية على شرف الصَّحابة، وفضلهم، ومكانتهم، ومنزلتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠].

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**العاشرة: ما في الجملة من هلاك الإنسان إذا وكِل إلى نفسه**»، أي: قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ لأنَّ كُلَّ خير أصله توفيق الله، وكُلَّ شرٍّ أصله خذلانه لعبد، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العارفون بالله أنَّ التَّوفيق هو ألَّا يكلك الله إلى نفسك، وأنَّ الخذلان هو أن يُخَلِّي بينك وبين نفسك»(٣).

فمَن لم يشرح الله عَزَّوَجَلَّ صدره للهداية، ويعينه عليها، ويُوَفِّقه، ويهديه؛

(١) رواه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.
(٢) يُنْظر: تفسير الطَّبريِّ (١/ ١٧٥)، وتفسير البغويِّ (١/ ٧)، عن أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولمَّا بلغ الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «صدَق أبو العالية ونصح».
(٣) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٤١٥).

فهو هالك، ولهذا جاء في الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١) أي: لا تكلني إلى نفسي في شيء قليل أو في لحظة يسيرة؛ بل أسألك التَّوفيق: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

إذًا في هذه الآية دلالة على «**هلاك الإنسان إذا وكل إلى نفسه**»، وأيضًا فيها نجاته وفلاحه وسعادته إذا وَفَّقه الله ولم يَكِلْه إلى نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النُّور: ٢١]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

وكان الصَّحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يرتجزون:

«**وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا**»(٢)

يعني: لولا منَّة الله علينا بالهداية لما كُنَّا من أهلها.

✍ **قال** رَحِمَهُٱللَّهُ: «**الحادية عشر: ما فيها من النَّصِّ على التَّوكُّل**».

ويمكن أخذ التَّوكُّل من مواضع من هذه السُّورة: مثل قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو المُربِّي، المُدبِّر، المُتَصَرِّف، الَّذي بيده أزمَّة الأمور: خفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وعطاءً ومنعًا، وعِزًّا وذُلًّا، وغنى وفقرًا، وحياةً وموتًا،

(١) رواه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠) عن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣٣٨٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤١٠٤)، عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم (١٨٠٢) عن سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فهذا يوجب التَّوكُّل عليه وحده، وتفويض الأمر إليه وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهي كلمة استعانة وتفويض وتوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أي: نستعين بك ولا نستعين بغيرك، مُفَوِّضين أمورنا إليك، ومُتَوَكِّلين عليك، وثقتنا بك، والتجاؤنا إليك.

أيضًا في دعائك: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فحاجتك إلى الاعتماد على الله والتَّوكُّل عليه للثَّبات على الاستقامة وللنَّجاة من الزَّلل والسَّلامة من الانحراف.

ولهذا قال أهل العلم: التَّوكُّل مصاحب للمؤمن في كُلِّ أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فكلُّ أمر، وكلُّ مصلحة، وكلُّ حاجة من حاجاتك؛ لا تستقيم لك ولا تَتِمُّ ولا تتحقَّق إلَّا بلجوئك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واعتمادك عليه وحده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«الثَّانية عشر: ما فيها من التَّنبيه على بطلان الشِّرك»**.

في سورة الفاتحة شواهد ودلائل كثيرة على بطلان الشِّرك: مثل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأكثر الخلق ضَلُّوا في باب استغراق الحمد، وباب استغراق ربوبيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعالمين؛ فلمَّا ضَلُّوا وقعوا في الشِّرك، لكن مَن حقَّق الإيمان بربوبيَّة الله أتى بلازمه وهو إخلاص الدِّين لله، والقيام بإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبوديَّة، والالتجاء والخضوع والذُّلِّ له وحده.

وأيضًا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«الثَّالثة عشر: التَّنبيه على بطلان البدع»**.

سورة الفاتحة من جملة ما دلَّت عليه بطلان جميع البدع: جملة، وتفصيلًا.

ويؤخذ ذلك إجمالًا من قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ففيها المتابعة، وردُّ البدع؛ لأنَّ كُلَّ بدعة من البدع ليست من الصِّراط المستقيم، كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثمَّ قال: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثمَّ قال: «**هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»(١)؛ فالبدع كلُّها ليست من الصِّراط المستقيم.

وقد عقد ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «مدارج السَّالكين» فصلًا عظيمًا عنونه بقوله: «فصل في اشتمال الفاتحة على الرَّدِّ على جميع المبطلين من أهل الملل والنِّحل، والرَّدِّ على أهل البدع والضَّلال من هذه الأُمَّة»، قال: «وهذا يعلم بطريقين، مجمل ومفصَّل: أمَّا المجمل: فهو أنَّ الصِّراط المستقيم متضمِّن معرفة الحقِّ... وأمَّا المُفَصَّل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها...»(٢)؛ وأطال النَّفس رَحِمَهُٱللَّهُ في تتبُّع ما في هذه السُّورة من ردود على المبطلة، فيقول مثلًا: أمَّا الجهميَّة فالرَّدُّ عليهم... ويذكر ما في الفاتحة من ردود على الجهميَّة، ثمَّ الرَّوافض ثمَّ القدريَّة؛ وتتبَّع أهل البدع طائفة طائفة يذكر ما في الفاتحة من رَدٍّ عليهم.

ويُقسم قسمًا عظيمًا رَحِمَهُٱللَّهُ يقول فيه: «وتالله، لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة إلَّا وفاتحة الكتاب متضمِّنة لردِّها، وإبطالها، بأقرب الطُّرق، وأصحِّها، وأوضحها، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهيَّة، وأعمال القلوب وأدويتها

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في المشكاة (١٦٦).
(٢) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ٨١-٨٢).

من عللها وأسقامها إلَّا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدَّلالة عليه، ولا منزلًا من منازل السَّائرين إلى ربِّ العالمين إلَّا وبدايته ونهايته فيها.

ولعمر الله، إنَّ شأنها لأعظم من ذلك، وهي فوق ذلك؛ وما تحقَّق عبد بها، واعتصم بها، وعقل عمَّن تكَلَّم بها، وأنزلها شفاء تامًا، وعصمة بالغة، ونورًا مبينًا، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي ووقع في بدعة ولا شرك، ولا أصابه مرض من أمراض القلوب إلَّا لمامًا، غير مستقرٍّ»[١].

فمَن يفهم الفاتحة فهمًا صحيحًا لا يقع في شرك ولا بدعة؛ فهي عصمة لمَن آمن بها وفهمها من الوقوع في ذلك.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«الرَّابعة عشر: آيات الفاتحة كلُّ آية منها لو يعلمها الإنسان صار فقيهًا».**

ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الفائدة تنبيهًا لكثرة المسائل المستنبطة من الفاتحة، وأنَّ الدُّروس الَّتِي تُستفاد من هذه السُّورة بالعشرات بل بالمئات.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وكلُّ آية أفرد معناها بالتَّصانيف، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم».**

لأنَّ فيها معانٍ كثيرة كلُّ معنى منها أفرد بتصانيف، مثل: الحمد، والثَّناء على الله، وذكر الله، وتمجيد الله، وربوبيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جلَّ في علاه، ومعاني الرُّبوبيَّة وما فيها من البراهين والدَّلائل على وجوب إخلاص الدِّين لله، واسم «الله» سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما يدلُّ عليه من وجوب الخضوع له والذُّلِّ، وأنَّه ذو الألوهيَّة والعبوديَّة على خلقه أجمعين، وأسماء الله الحسنى، واليوم الآخر، والعبادة ومعناها وحقيقتها ووجوب إخلاصها لله، والاستعانة بالله، والتَّوكُّل عليه،

(١) زاد المعاد لابن القيِّم (٤/ ٣١٩).

والهداية، والصِّراط المستقيم والاتِّباع للنَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والحذر من البدع، والرُّدود على أهل الباطل وأئمَّة الضَّلال من المغضوب عليهم والضَّالِّين، إلى غير ذلك.

فالفاتحة مليئة بالعِبر والدُّروس والعظات، ومليئة بالفوائد، فيُنبَّه بهذه المسألة إلى أنَّ ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُجَرَّد إشارات إلى بعض المسائل المستنبطة من هذه السُّورة؛ وأمَّا المجال فهو مجال واسع.

وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة أخرى فيها بعض الفوائد المستنبطة من سورة الفاتحة(١) تشترك في بعضها مع بعض ما ذكر في الرِّسالة المُتَقَدِّمة، وفيها فوائد عظيمة وثمينة زائدة على ما في تلك الرِّسالة، وفيما يلي أوردها مع شيء من التَّعليق عليها.

(١) يُنظر: الدُّرر السَّنيَّة (١٣/ ٧٣-٧٤)، وله أيضًا رسالة ثالثة في فوائد سورة الفاتحة، في أوَّلها سقط، وقد نقلت فوائدها بحسب مواطنها من هذا الشَّرح.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:١-٤]، **وتضمَّنت ثلاث الآيات ثلاث مسائل:**

الآية الأولى: فيها المحبَّة؛ لأنَّ اللهَ مُنِعم، والمنعَم يُحَبُّ على قدر إنعامه؛ والمحبَّة تنقسم إلى أربعة أنواع:

محبَّةٌ شركيَّةٌ: وهي محبَّة الَّذِين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

المحبَّة الثَّانية: حبُّ الباطل وأهله، وبغض الحقِّ وأهله، وهذه صفة المنافقين.

والمحبَّة الثَّالثة: طَبيعيَّة وهي محبَّة المال والولد، فإذا لم تشغل عن طاعة الله، ولم تُعن على محارم الله، فهي مباحة.

والمُحبَّة الرَّابعة: حُبُّ أهل التَّوحيد، وبغض أهل الشِّرك، وهي أوثق عُرى الإيمان، وأعْظَمَ ما يعبد بها الإنسان ربَّه.

الآية الثَّانية: فيها الرَّجاء.

والآية الثَّالثة: فيها الخوف.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: أعبدك ياربَّ بما مضى بهذه الثَّلاث، بمحبَّتك ورجائك وخوفك، هذه الثَّلاث أركان العبادة، وصرفها لغير اللهِ شرك.

وفي هذه الثَّلاث الرَّدُّ على مَن تعلَّق بواحدةٍ منها، كمَن تعلَّق بالمحبَّة وحدها،

أو تعلَّق بالرَّجاء وحده، أو تعلَّق بالخوف وحده؛ فمَن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك».

الشَّرح

عبادة الله إنَّما تكون بهذه الثَّلاث؛ فهي أركان قلبيَّة للتَّعبُّد، أي: لكلِّ عبادة تتقرَّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها لا بُدَّ أن تكون قائمة على هذه الأركان الثَّلاثة:

الحبُّ ودلَّ عليه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والرَّجاء دلَّ عليه قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

والخوف دلَّ عليه قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وبهذه الثَّلاث: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: بمحبَّتك، ورجائك، وخوفك؛ فلا يُعبد بالحبِّ وحده، ولا بالرَّجاء وحده، ولا بالخوف وحده.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد». العبودية (ص١١٢).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفيها من الفوائد: الرَّدُّ على ثلاث الطَّوائف الَّتِي كلُّ طائفة تعلَّق بواحدة منها، كمَن عبد الله بالمحبَّة وحدها، وكذلك مَن عبد الله بالرَّجاء وحده كالمرجئة، وكذلك مَن عبد الله بالخوف وحده كالخوارج.**

وأمَّا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **ففيها توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة،** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ **فيها توحيد الألوهيَّة،** ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **فيها توحيد الرُّبوبيَّة،** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ **فِيْهَا الرَّدُّ عَلَى المُبْتَدِعِين**».

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفيها من الفوائد: الرَّدُّ على ثلاث الطَّوائف الَّتِي كلُّ طائفة تعلَّق بواحدة منها، كمَن عبد الله بالمحبَّة وحدها، وكذلك مَن عبد الله بالرَّجاء وحده كالمرجئة، وكذلك مَن عبد الله بالخوف وحده كالخوارج**».

أما من عبد الله بالمحبَّة وحدها فكغلاة المُتَصَوِّفة، الَّذِين عبدوا الله بالحُبِّ وحده؛ بل قالوا: إنَّ مَن يعبد الله رجاء لثوابه، أي: يُقَدِّم ليأخذ هذه عبادة التُّجَّار، وهذا من الاستخفاف وسوء الأدب.

فإبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول في دعائه: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشُّعراء:٨٥].

ونبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لرجل: «كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشَهَّدُ ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»[١]، أي: الجنَّة والنَّار.

(١) رواه أحمد (١٥٨٩٨)، وأبو داود (١٧١٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣١٦٣).

بينما أولئك يقولون: نحن لا نخاف من نار ولا نرجو جنَّة، وإنَّما نعبده حبًّا فيه، ولهذا وجد عند هؤلاء الغلاة استخفافًا بأمر الجنَّة ونعيمها واستخفافًا بالعذاب، كُلُّ هذا من تراكم الباطل الَّذِي يتوالد فيهم بسبب بعدهم عن صراط الله المستقيم.

والبدع تتوالد ويُوَلِّد بعضها بعضًا، كما قال الشَّيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في براءته من البدع[١]:

«إِنِّـي بَـرَاءٌ مِـنَ الْأَهْـوَا وَمَـا وَلَدَتْ   وَوَالِدِيْهَـا الْحَيَارَى سَـاءَ مَا وَلَدُوا».

وأما مَن عبد الله بالرَّجاء وحده فكالمرجئة الذين أعملوا نصوص الرجاء والوعد وأهملوا نصوص الخوف والوعيد.

وأما مَن عبد الله بالخوف وحده فكالخوارج الذين أعملوا نصوص الخوف والوعيد وأهملوا نصوص الرجاء والوعد؛ فخرجوا على الجماعة ونزعوا اليد من الطاعة واستحلوا دماء المسلمين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، **ففيها توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة،** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ **فيها توحيد الألوهيَّة،** ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **فيها توحيد الرُّبوبيَّة**».

قال شيخ الإسلام: «المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله، الذي يعبده ويستعينه، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإنَّ أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ

(١) نظم الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة (ص٣٣).

ﱡﭐ ٱلنَّاسِ ﱠ [الناس: ١ - ٣]، وفي قوله: ﱡﭐ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﱠ [الفاتحة: ٢]، فجمع بين الاسمين: اسم الإله، واسم الرب؛ فإنَّ الإله هو المعبود الذي يستحق أن يُعبد، والرب هو الذي يربي عبده، فيدبره.

ولهذا كانت العبادة متعلقةً باسمه الله، والسؤال متعلقًا باسمه الرب، فإنَّ العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق، والإلهية هي الغاية، والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، فهو متضمن ابتداء حالهم، والمصلي إذا قال: وأمَّا ﱡﭐ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﱠ [الفاتحة: ٤] فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، تلك حكمة وهذا سبب».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ﱡﭐ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﱠ فِيْهَا الرَّدُّ عَلَى المُبْتَدِعِين».

وفي الرِّسالة الأولى قال: «**فيها المتابعة**»؛ فالصِّراط المستقيم هو: ما كان عليه النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هو الدِّين الَّذِي ترك عليه أصحابه، وما لم يكن دينًا في زمن محمَّد ﷺ وأصحابه لا يكون دينًا إلى قيام السَّاعة، وقد قال ﷺ «**تَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**». **قَالُوا: وَمَا تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَالَ:** «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(١).

وما خالف ذلك ممَّا أحدثه النَّاس وأنشأوه واخترعوه فليس من دين الله قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، وفي رواية: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

---

(١) رواه الطَّبَرانِيُّ في الأوسط (٤٨٨٦)، والحاكم في المستدرك (٤٤٤)، والحديث حسن بمجموع طرقه، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٢) رواه مسلم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأمَّا الآيتان الأخيرتان، ففيها من الفوائد ذكر أحوال النَّاس؛ قسمهم الله ثلاثة أصناف: منعم عليه، ومغضوب عليه، وضالّ.**

فالمغضوب عليهم: أهل علم ليس معه عمل، والضَّالِّين: أهل عبادة ليس معها علم، وإن كان سبب النُّزول في اليهود والنَّصارى فهي لكُلِّ مَن اتَّصف بذلك.

والنَّوع الثَّالث: مَن اتَّصف بالعلم والعمل، وهم المنعم عليهم».

الشَّرح

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأحوال فقال: «فإنَّ صلاح العبد في أن يعلم الحقَّ ويعمل به، فمَن لم يعلم الحقَّ فهو ضالٌّ عنه، ومَن علمه فخالفه واتَّبع هواه فهو غاوٍ، ومَن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملًا ومن أولي الأبصار علمًا، وهو الصِّراط المستقيم الَّذِي أمرنا الله سبحانه في كُلِّ صلاة أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، فالمغضوب عليهم: الَّذِين يعرفون الحقَّ ولا يتَّبعونه كاليهود، والضَّالُّون: الَّذِين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم كالنَّصارى.

ولهذا وصف الله اليهود بالغواية في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ووصف العالم الذي لم يعمل بعلمه بذلك

في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، ووصف النَّصارى بالضَّلال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ووصف بذلك مَن يتَّبع هواه بغير علم حيث قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وأخبر أنَّ مَن اتَّبع هداه المُنزَّل فإنَّه لا يضلُّ كما ضلَّ الضَّالُّون، ولا يشقى كما شقي المغضوب عليهم، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]. قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «تكفَّل الله لمَن قرأ القرآن وعمل بما فيه إلَّا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقى في الآخرة»[1].

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: **«وفيها من الفوائد: التَّبرُّؤ من الحول والقُوَّة؛ لأنَّه منعم عليك».**

أي: أنعم الله عليهم بالهداية، ووفَّقهم لسلوك سبيلها، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لما كانوا من المهتدين، إذ لا حول لهم ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: **«وكذلك فيها: معرفة الله على التَّمام، ونفي النَّقائص عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».**

أي: بما تعرَّف الله تعالى به في هذه السُّورة إلى عباده من صفات كماله، ونعوت جلاله، وبديع أفعاله، وكمال ربوبيَّته، وعميم رحمته، وتمام ملكه،

(١) جامع المسائل لابن تيميَّة (٣/ ٨٥).

وعظيم إنعامه، وبمعرفة ذلك يهتدي العبد إلى محبَّته وتعظيمه والإنابة إليه، وإفراده بأنواع العبادة.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفيها: معرفة الإنسان نفسه، ومعرفة ربِّه؛ فإنَّه إذا كان ربٌّ فلا بُدَّ من مربوب، وإذا كان هنا عبد فلا بُدَّ من معبود.**

وإذا كان هنا هادٍ فلا بُدَّ من مهدي، وإذا كان هنا مُنْعَم عليه فلا بُدَّ من مُنْعِم، وإذا كان هنا مغضوب عليه فلا بُدَّ من غاضب، وإذا كان هنا ضالٌّ فلا بُدَّ من مُضِلٍّ».

وهذه المعرفة بالله ربًّا خالقًا مالكًا مُتَصَرِّفًا، وبالعبد مخلوقًا له مربوبًا تحت أوامر سيِّده ونواهيه؛ تثمر أن تَصَرُّف العبد في نفسه يكون تَصَرُّف المأمور المنهي المُسْتَعِدِّ لأوامر سيِّده ونواهيه امتثالًا وانقيادًا، وهذه هي الغاية الَّتِي خُلِق العبد لأجلها، وهي كمال سعادته وصلاحه في دنياه وآخراه.

✍ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذه السُّورة تضمَّنت: الألوهيَّة، والرُّبوبيَّة، ونفي النَّقائص عن الله، وتضمَّنت: معرفة العبادة، وأركانها، والله أعلم**».

ويستدلُّ بالسُّورة على نفي النَّقائص عن الله من جهة ما أثبت فيها من المحامد والكمالات لله سبحانه؛ فإنَّ ثبوتها لله دليلٌ على نفي النَّقائص الَّتِي تنافيها.

هذه بعض الفوائد الَّتِي استنبطها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من هذه السُّورة العظيمة المباركة المليئة بالعبر والدُّروس والعظات النَّافعات.

والله وحده ولي التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهرس